

وجه

القمر..

بقلم

أوسان العامري

وجه القمر..

بطاقة الكتاب:
اسم الكتاب: وجه القمر
اسم الكاتب: أوسان العامري
نوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: ١٣٨ صفحة
المقاس: ٢٠ x ١٤
رقم إيداع: ٢٠٢٠/١٩٤٨٩
الترقيم الدولي: 978-977-85755-9-0
الطبعة: الأولى، ٢٠٢٠م

رئيس مجلس الإدارة

مها المقداد

للتواصل والطلب من داخل أو خارج مصر:
00201129195867-00201033966291

الغلاف والتنسيق الداخلي والمراجعة

فريق دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع

أقر المؤلف بأنه وحده صاحب الحقوق الفكرية للكتاب، وأنه يضمن للناشر عدم التعرض من الغير بخصوص الملكية الفكرية، كما صرح أن هذا الكتاب ليس في مضمونه ما يمنعه القانون، وأن الآراء والأفكار التي يتضمنها محتوى الكتاب تعبر عن فكر المؤلف فقط ولا يعبر عن رأى الناشر، ولا يوجد داخل الكتاب نقل أو استعارة بما قد يعرض الناشر للمسؤولية القانونية.

وجه القمر..

The moon face..

بقلم

أوسان العامري

فريق عمل دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف
التنسيق الداخلي مها المقداد

 دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع-مها المقداد

 +201289024055

 Mahaelmukdad@gmail.com



إِهْدَاء

إلى مَنْ أعاد إليّ قلّمي بعد أن
أضعته سنوات.. وضعه بين أناملي
ثمّ ابتسم وقال لي: لا مستحيل مع
الإرادة..

إلى روحه الطيبة، فقد ترحل
باكراً.

للأستاذ الراحل: عبد اللطيف
مطيلس.

إلى رفيقة حروفي، والمنصّة
لهمسي لغاليتي وشقيقة روحي أختي:
منية العامري.

شكر!

بكل حروف أجمديتي أشكر
الأساتذة :

الغالية الأديبة : عبير عزاوي.

الأستاذ القدير: صقر الحمود.

الأستاذة القديرة : الزّهاء
وزّيك.

بتعليماتكم وإرشادتكم تألقت
حروفي.

الفصل الأول

وجه القمر
أوسان العامري

(١)

صندوق خشبي

أمسك بيديه المرتعشتين صحيفة، وجلس على كرسي فضي اللون بأحد مطاعم الحي، وأمامه ماسة فضية، وكأس الشاي بالحليب الذي اعتاد أن يشربه كل صباح.. شارف عمره على السبعين.. بلغ سمعه وهو جالس حديث شخصين بجواره.

- جاري أبو منصور، وجد اليوم في مزرعته لقيطة، وحين سمعت الخبر ركضت إليه أريدها. (قال أحدهما)
- هل أعطاك إياها؛ فأنت وحيد دون أطفال؟ (سأله

الآخر)

- للأسف رفض، رغم أنني عرضت عليه مبلغًا كبيرًا من المال، أردت شراءها لكنه رفض. لديه سبعة من الأبناء وبنات.. لقد بكى حين عرضت عليه المال؛ وقال لي: حين حملتها هدأت وسكنت إلي لعلها فتح ورزق.

تبسم صالح وهو يسمع حديثهما همس في نفسه:
- إي ورَبِّي ستكون خيرًا ورزقًا وهدية أهداها إليه الرحمن.

تصفح جواله.. نظر إلى صورتها وجوارها طفاتها، فلمعت الدموع على أهدابه:

- ثريتي.. اشتقت إليك واشتقت إلى جوري صورتك المصغرة.. مرت سنتان وألم الفراق ينخر جسدي، كبرت ما عدت أقوى على البعد والفقد لقد صار العيش صعبًا في وطن

تداعت عليه المحن، وتلبدت سماؤه بغيوم الفتن.. ما عدنا نرى فيه
شمس الحقيقة.. لا نطيق فراقه لكن الفقر في الوطن غربة.
وقعت عينه على التاريخ: ٢٠١٩/٦/١ م
- في مثل هذا اليوم حملتها بين يدي وسكنت، بعد
بكاء بح منه صوتها".

مر شريط ذكريات ثلاثين سنة أمام عينيه الدامعتين كأنه
أمس. في صباح ١٩٩٠/٦/١ ماغلق نوافذ المسجد وأطبق بابيه
وهو يتمتم بأذكار الصباح.. والفجر يبتسم وزقزقة العصافير
ترحب بطلوع الشفق.. صالح رجل في الأربعينيات من عمره،
يعلو أثر السجود جبهته وتخرق الشعيرات الفضية لحيته الكثّة
التي تكسو وجهه فتزيده وضاءة ووقاراً، فتبدو العمامة الملتفة
حول رأسه الصغيرة كأنها جبل شامخ أمام نكبات الزمان.
أحكم إغلاق الباب.. وبخطى وثيدة غادر عتبة المسجد، وما
أن وطئت نعله تراب الزقاق، حتى شنف مسامعه، لصوت بكاء
بعيد، تسمر مكانه، أرسل سمعه يتبع الصوت ومصدره.. كان
مصدر الصوت في آخر زاوية بين المسجد والشارع اقترب منه
أسرع في خطواته.

لمح صندوقاً خشبياً بني اللون، خطوط سوداء متعرجة
تزينه من جانبيه، وقد تدلى منهما شال أبيض.. تسارعت نبضات
قلبه وتصبب العرق من جبينه وتساقط رذاذ المطر. نظر إلى
الصندوق فلم تحمله قدماه، جثا على ركبتيه.. كان مولوداً لم يمر
على ولادته إلا سويغات.. كشف الغطاء عنه، فإذا هي طفلة، رفع
رأسها إلى السماء.. مازال القمر في كبدها مبتسماً كأنه نزل داخل
ذلك الصندوق.. يغطي جبينها شعر أسود وشفتاها مشربتان بحمرة
خفيفة وتلك العينان الكحيلتان اللتان تورمتا من شدة البكاء تحيط

بهما رموش طويلة.. أجهش بالبكاء وتناثرت دموعه حملها بين يديه فهدأت همس إليها:

- من رماك هنا يا وجه القمر؟! خطيئة حبيبين أنت.. نظرة ثمَّ عشق فموعد فلقاء.. على رصيف الضياع والحب المشبوه ينتحر العفاف!! هم يخطئون وأنتم تدفعون الثمن دهرًا.

ضمها إلى صدره.. وحملها بكلتا يديه.. ألتفت يمنة ويسرة حتى لا يراه أحد، لا أحد في ذلك الشارع، فلا صوت ولا حركة إلا قطرات الندى تلقي تحية الصباح على الأزهار.. وصريير أوراق الأشجار. أسرع في خطواته.. طرق الباب وفتحت زوجته.. فبادرها مبتسما:

- زينب انظري ماذا وجدت؟

حملت أم أحمد إلى داخل الصندوق ورفعت نظرها مشدوهة.. وأمطرها فكرها وابلًا من الأسئلة. أم أحمد امرأة ثلاثينية قصيرة القامة، بيضاء البشرة، تلف شعرها الأسود الكث حول بعضه في منتصف رأسها، ثمَّ تزينه بطوق من القطن المطرز بحبات اللؤلؤ، ترتدي جلابية من القطن ذات ألوان زهرية إلى منتصف ساقها.. وما أن مد إليها الصندوق حتى علت وجهها الدهشة والاستغراب!!

- طفل؟! (صرخت) من أين جئت به؟ من

أعطاك إياه؟

أمعنت النظر إليه.. فصاحت..

- طفلة يا صالح!.. كأنها قمر..

وجلست إلى الأريكة..

- اسمعيني يا أم أحمد اسمعي القصة

واحفظي السر..

سرد عليها صالح القصة، فسحّ سيل من الدموع على خديها، وهي تضمها إلى صدرها لتسكت أنينها المتقطع الواهن.. وما أن ألقمتها ثديها.. حتى أقبلت عليه الصغيرة بشراة، لقد كانت تتضور جوعا.

نظرت إلى صالح والحيرة تملؤها:

- بماذا أجيب من يسألني عنها حينما يراها؟ محمد عمره سنة والكل يعرف أنني لا أنجب بعد العملية التي أجريتها قبل سنة.. ماذا سأقول لهم؟ حتى ولديك عمر وأحمد فهما ليسا صغيرين لكي نكذب عليهما.

- يا أم أحمد سأقول إنها ابنة قريب لي مات هو وزوجته في حادث وليس لها داخل المدينة أقارب، فكفلتها أنا..

اقتنعت أم أحمد بكلام زوجها.. أخذت تنظر إليها والألم يعتصر قلبها، وسألت:

- ماذا لو كبرت وعرفت قصتها ماذا سنفعل حينها؟

- يا أم أحمد، لا تزيد همي أشعر أنني تحملت جبلا فوق رأسي.. أدعو الله أن يعيننا ونحسن تربيتها ونحافظ عليها سنكتم سرها فلا أحد يعرفه سوانا أنا وأنت.. أرضعها فنصبح أسرتها..

احتضنتها أم أحمد لدقائق، فشعرت بنبض يسري من قلبها إلى قلب الطفلة الذي يرتفع وينخفض بسرعة.. ثم نهضت المرأة بعد أن صحت من دهشتها. أخذت الطفلة إلى داخل المنزل نظفتها وألبستها بعض الثياب التي كانت معها..

- انظر يا صالح كأنها نجمة...
- ماذا سنسميها؟

- ثريا.. (قال صالح) لترتفع وتسمو ويكون
لها مكان عال إن شاء الله.
استيقظ عمر وأحمد على صوت بكائها.. ركضا إلى غرفة
أمهما نظر إليهما أبوهما..
- تعالا يا أولاد..
وقفوا والدهشة تملؤهما..
- هذه ثريا أختكما الصغرى أحباها
وصوناها وكونا لها سندًا تتكى عليه.. (قال صالح)
قص عليهما قصتها وما آلت إليه بعد وفاة والديها بحادث..
أقبلًا يقبلانها..
- ما أجملها يا أمي.. (قال أحمد)
وعلى أصواتهم استيقظ محمد، هزه عمر..
- انظر يا محمد إنها صغيرة وهي أجمل
منك سألعب معها منذ اليوم..
حك محمد عينيه بكلتا يديه، وحين رأى أمه تحمل الطفلة
بكى وعلا صراخه؛ فضحكوا جميعًا.

(٢)

غيمة

بدأت الحركة في الحي، حين أوشكت الشمس على الشروق، أصوات المارة، ورائحة الخبز من مخبز أبي جميل الذي يتسابق أصحاب الحي لشرائه لرائحته التي لا تقاوم.. وألوان الخضار الجذابة كأنها قوس قزح يرتسم أمام دكان أبي محمد وهو يحمل قماشاً بين يديه يمسح بها الخضار فتبرق ألوانها..

الخط الرئيسي الذي يربط عدن بتعز، يعج بالسيارات وشاحنات النقل، فقد تحققت الوحدة وأصبح التنقل بين المناطق الشمالية والجنوبية سهلاً ومتاحاً. وعلى يساره يمتد شارع مستقيم تصطف فيه مبان مكونة من عدة طوابق، ومن خلفها مبان عشوائية ومن أمامه أراض مازالت خاوية على عروشها. وعلى يمين الخط يمتد حي البساتين، بمزارعه الواسعة ورائحة الليمون وأشجار الجوافة التي تفوح من جنباتها.. تتخللها بيوت مبنية من الطين، تلك الأراضي ذات تربة خصبة؛ إلا أن الزحف العمراني قلص مساحة الأراضي الزراعية بشكل يثير الحزن والحنق.

يفتح صالح باب بيته، ذلك الباب الذي أكل عليه الدهر وشرب، يغلقه بكل قوة فقد أصابه الصدا.. منزل صالح يطل على الحي من الجهة الشمالية، وتكاد تلك المباني العالية تحجب عنه أشعة الشمس لولا بضعة خيوط تتسلل بين الفينة والأخرى فتمنح المنزل اللانذ بها بعض الدفء والنور.. فتح صالح بقالته، وبدأ صباحه كعادته كل يوم.. يتفقد زوايا البقالة، والسلع الموجودة فيها وتلك الرفوف المليئة بأنواع "العصائر والبقوليات والألبان

والأجبان، وألعاب الأطفال، والحلويات بكل أنواعها". كان ذلك اليوم مميزًا بالنسبة له.. شعور يختلج روحه مختلط بين فرح وحزن.. خوف وقلق.. يتمنى لو يستطيع أن يخفي تلك الطفلة "ثريا" في حنايا عينيه دون أن يراها أحد دون أن يكذب لكي يحفظها ويحافظ عليها.. يزاول عمله قبل الشروق ولا ينتهي إلا بعد الغروب يغلق بقالته فقط للصلاة والذهاب للغداء.. لا يملك شيئاً سوى تلك البقالة التي يعيل بها أولاده ولقمة العيش التي يسد بها رمقهم. صالح رجل طيب القلب، يستدين أغلب الحيران منه ما يريدون ويسددون بعد ذلك، نهاية كل شهر.. البعض يماطل لكنه لا يؤنب أحداً ولا يطالبه.. ويساعده ابنه أحمد في المحل، بل هو من يعتمد عليه في الحساب، والبيع والشراء.. كان ماهراً في ذلك على الرغم أنه لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره.. أما أخوه عمر فلا يحب البقالة؛ لأنه شغوف بالقراءة وكتابة الأشعار والخواطر على الرغم من صغر سنه، فهو لم يتجاوز الرابعة عشرة.. يشجعه والده، ويطمح أن يصبح يوماً ما شاعراً له مكانته.. مرَّ أسبوع على تواجد ثريا في بيت صالح.. شيء ما تغير في ذلك البيت كأن الدفء والنور يلزمه، كأن نجمة من السماء نزلت وسكنت ذلك المنزل وبثت فيه السعادة والفرح.. فقد كانت أم أحمد تلازم فراشها بين الفينة والأخرى لمرض يأتيها فجأة، تلازم فراشها يومين أو ثلاثة وقد عرضها زوجها على كثير من الأطباء.. همس إليه أحدهم:

- زوجتك تعاني من بداية حالة نفسية

صعبة.

لكنه رفض أن يعطيها أدوية، وحاول أن يعوض ذلك بالمداومة على الرقية الشرعية. في ذلك الأسبوع كان الأمر مختلفاً.. لم تمرض أم أحمد، ولم تنتبها الأعراض النفسية السابقة،

لم يصدق صالح ما يحدث، فقد نسيت نفسها مع ثريا حتى ملامح وجهها تغيرت وتلك الابتسامة الحنونة ارتسمت على ثغرها من جديد.. بعد مرور أشهر لاحظ صالح أنّ المواد الغذائية والسلع قد تم بيعها بالكامل خلال شهر فقط وهي المرة الأولى التي يحدث فيها هذا.. أصبح يزوره زبائن لا يعرفهم ويشترون منه، ولازمت الفرحة أسارير وجهه، وهو ينظر إلى ابنه أحمد وحركته ونشاطه في البقالة وسعادته أنّ الحياة عادت إلى بقالتهم بعد أن شبّ الحريق فيها قبل سنتين.. بسبب تماس تيار كهربائي حدث في غفلة منهم.. تغير كل شيء، البيت أصبح أوسع، فقد رمم صالح منزله القديم الذي يتكون من أربع حجرات، وصالة واسعة، وحوش أمام المنزل مفروش بالحصير. أضاف ألواناً زاهية إلى جدران الحجرات كلها، واستبدل تلك الأبواب التي نخرتها الأرضة، بأخرى جديدة، وزين الصالة بلون زهري جميل، بدت كزهرة متفتحة والحجرات بتلاتها.. أما حوش المنزل فقد وضع على جانبيه أغراس من الزهور وفرش وسطه ببلاط ترابي اللون. ألبقالة توسعت وأصبحت متجرّاً كبيراً، يواظب صالح على إدارة دفته بمساعدة ابنه أحمد وبعض العمال. أما أم أحمد فقد تعافت تماماً، ولم يزرها المرض منذ دخول ثريا منزلها..

قال صالح:

يا أم أحمد، رأيت ما وصلنا إليه، كأنها
غمامة أمطرتنا بخيرها بإذن الله..

أي والله، غمامة وأي غمامة..

أقبلت ثريا:

أبي..

يا قلب أبيك ومهجته..

ركضت إليه فاحتضنها وأخذت تقبله.. ضحك.. ثم قال:

- ماذا تريدان يا نجمتي!..
- معي واجبات أريد حلها مع هند.. هل
أذهب إليها؟
- حسناً اذهبي لكن لا تتأخري.. ولا
تصعدي الدرج..
تبسمت؛ ثم قالت:
- حاضر يا أبي
ذهبت ثريا تتقافز كغزالة غضة..
- أنا لم أأذن لها وأنت أذنت لها! أخاف
عليها، البنت كما ترى أصبحت نجمة مضية لم تعد
صغيرة أخاف عليها من كل شيء.. (قالت أم أحمد)
- لا تخافي.. صديقتها هند مؤدبة وأبو فهد
ليس له أولاد كبار سوى فهد يكبرها بعامين.. (تمتم صالح
بينه وبين نفسه) وأنا كذلك أخاف عليها من نسمة هواء
تحرك خصلات شعرها.. من يرميها بالورد سأرميه
بالرصاص..

(٣)

أول نظرة

طرقت ثريا الباب.. فتحت لها هند ورحبت بها وجلستا في أرجوحة محاطة بمشاتل الورد، ونافورة ماء أمامهما.. المنزل عبارة عن فيلا جميلة، تزينها شرفة دائرية محاطة بسور عالٍ تزينه قناديل، وتتوسطه بوابة كبيرة.. منزل هند جميل، وأسر لطالما حدثت ثريا أباهما عنه وعن جماله فيطأطئ رأسه وهو يتمتم:

- الحمد لله على النعمة.

جلست ثريا بجوار هند تتضحكان وتحلان بعض واجباتهما، وبعد أن أكملتا كل التمارين، شرعتا في اللعب.. رأت ثريا فراشتين ترفرفان بجناحيهما، وتراقصان الورد ركضت نحوهما، وبدأت هي وهندتضحكان وتركضان في الحديقة انضم إليهما فهد فتعالت أصواتهم..

صرخت أم فهد:

- هند ما هذه الفوضى ألا تهدأون؟ لا

تعبثوا بالحديقة.

لملمت ثريا دفاترها بسرعة وقد اغرورقت عيناها بالدموع، حبست عبرتها وركضت نحو الباب أمسكت بها هند:

- أمي لم تقصدي، هي هكذا حين نلعب أنا

وفهد تصرخ إن أحدثنا ضجة.

- ثريا أرجوك ابقِ معنا سنلعب بهدوء.
(قال فهد)
أمسكت بالباب ففتح أبو فهد الباب.
- أهلاً ثريا.. قد كبرت وصرت فتاة جميلة
ومهذبة.. كيف حالك يا أبنتي.. (قال أبو فهد)
- شكراً يا عم.. الحمد لله بخير. (قالت
ثريا)
- هل ستذهبين؟ (قال أبو فهد)
قالت هند وهي تمسك بثريا:
- أبي ثريا خافت من أمي لقد صرخت فينا
أن نتوقف عن اللعب والفوضى.
- تعالوا والعبوا واصرخوا مثلما شئتم،
تعالى يا ثريا. (قال أبو فهد)
كانت أم فهد تطل عليهم من الشرفة وأمامها فنجان قهوتها،
وبين يديها رواية تقرأها.. وضعت كل شيء على الطاولة.. ثم
نزلت بسرعة حين رأت أبا فهد.
أم فهد مزمجرة :
أريد أن أتناول القهوة بهدوء.. سرقت مني متعة تلك
اللحظة.. لم أستمتع بقراءة روايتي.. أمسك أبو فهد بيدها وجذبها
إليه
- تعالِ يا حبيبة. (قال أبو فهد)
جلسا معاً في الشرفة..
- يبدو أنك لم تكلمي قهوتك.
- أحبها ساخنة لكنها بردت.
حق بها وهي تلاعب خصلات شعرها وتمسك الكتاب
بيدها الأخرى.. أخذ الكتاب وأغلقه، غضبت منه.

- نعم حسام، ماذا تريد؟
- أحبك حينما تغضبين تبدين أجمل.
- هاه.. لذلك تستفربي؟!
أبو فهد وهو يتأمل وجهها:
- لا أرى جمالك إلا حين تغضبين..
أتذكرين حينما مررتُ بسيارتي بجوار سيارتك؟ نظرت
إليك وأنت تنزلين زجاج نافذة سيارتك.. لم أع حينها إلا على
صراخك:
- ألا تنتظر أمامك؟! نسيت نفسي حينها ولم
أرَ شيئاً إلا أنت.. ظننت أنني حاذيت سيارتك وإذا بي
أكسر مرآة سيارتك الفاخرة..
ضحكت حبيبة ثم قالت:
- ذكرتني بالأيام الخوالي، وهل تلك
اللحظات تنسى يا حسام!.. تذكرت كريتر وحي القطيع
الذي ترعرعت فيه وشوارعه الجميلة.. وشارع
العيدروس الذي التقيتك فيه. نعم أتذكر عندما نزلت تعتذر
وتهدئي.. أنا كذلك غرقت في عينيك.. رأيت أمامي شاباً
مفتول العضلات يرتدي ثياباً فاخرة جذاباً وسيقماً..
أرتبكت حينها.. لكنني سرعان ما استعدت توازني، وزاد
إعجابي بك حين قلت: سأوصلك بسيارتي إلى بيتك ثم
أصلح سيارتك وأتيك بها.
- صحيح.. لكنك رفضت كم كنت عنيدة!
قلت: سأصلحها بنفسي لا أحتاجك. تبعتك كنت خائفاً
عليك لا أدري لماذا؟!
- وقفت أراقبك من بعيد وحينما خرجت
من ورشة الصيانة، وتركت سيارتك هناك ووقفت على

الرصيف تريدان سيارة أجرة.. أتيتك.. لم أخف من
غضبك فقد غرقت في تلك العنان التي أخذت بتلابيبي
وقوام رائع شغف به قلبي وذلك الشعر المتدلي على
الكتفين، فلا أدري أيهما زاد الآخر جمالاً.. كأني أرى
ظبية في الفلاة.. كلما اقتربت منها نفرت مني.. وحين
أوقفت سيارتي.. زجرتني بعبارتك: ألا تفهم أنت مرة
ثانية؟ نزلت ووقفت بجوارك قلت لك يومها: سأترك
سيارتي هنا وسأركب معك سيارة أجرة حتى أطمئن
عليك ثم أعود إليها.. حين شعرت بجديتي قلت: حسناً
سأركب معك لكن بشرط قلت لك: موافق.. ضحكت..
فأبحرت في أمواج ضحكتك.. قلت: موافق دون أن تسمع
الشرط.. قلت لك: المهم أن أوصلك.. قلت: أن توصلني إلى
منتصف الطريق فقط.. قلت لك: موافق.. ركبت وساد
الصمت.. ألا نبضات قلبي كانت تدق بسرعة.. أوقفتها
حين قلت قف.. فوقفت.. قلت لك: لو تسمحين هذا رقمي
حينما تذهبين لسيارتك اتصلي بي لأكون هناك.. غضبت
ورميت به ومشيت.. كطاووس ينشر ريشاته.. ظلمت
أنظر إليك وأراقبك حتى دخلت منزلك.. كان منزلاً فارهاً
ومبنى عالياً..

- في تلك الليلة بات طيفك أمامي أغمض
عيني فأراك.. أسمع صوتك.. أتأمل ملامحك شعرت
بشيء دب في قلبي.. قلت: وهل هذا ما يسمونه الحب من
أول نظرة.. لم أصدق أنني سأجدك هناك عند ورشة
الصيانة..
قاطعها أبو فهد ضاحكاً:

- منذ الصباح الباكر رابطت هناك، لأنني
سألتهم متى يزاولون عملهم أجابوا قبل طلوع الشمس.
قالت حبيبة:

- ارتدبت أجمل ما عندي.. كان ذلك اليوم
مختلفا شعرت أنني أرى كل شيء حولي جميلا ورائعا
قبلت الأزهار.. ورقصت مع تغاريد الأطيوار.. حتى أشعة
الشمس التي تتسلل من خلف ستائر غرفتي الذهبية
وأتذمر منها كل يوم.. كانت رؤيتي لها ذلك اليوم
مختلفة.. وحين لمحت سيارتك خفق قلبي.. ومشيت
نحوك..

- ففتحت باب السيارة وخرجت ووقفت
انتظرك.. عيناى تتسعان أكثر وأكثر.. كأنى أرى نجمة
تتلاأ فى كبد السماء.. لا أسمع إلا صوت كعبك العالى له
صدى فى مسامعى.. وذلك الفستان الأزرق الغامق الذى
أغرقنى، كالبحر فى أمواجه.. كلما اقتربت شعرت أنني
أغرق فى يملك.. كمبتدئ لا يجيد السباحة يبحث عن شيء
يتمسك به لينجو.. قلت: صباح الخير! كأننى أول مرة
أسمعها لها حس مرهف وعزف شجى.. لم أرد عليك
أحببت أن تعيدها لأستمتع بلحنها من بين شفتيك.. وتتهت
حينها فى سحر عينيك.. فضحكت.. ثم قلت: ألا ترد تحية
الصباح.. قلت فى نفسى: كيف أرد وصباحي صار بين
يديك.. فأنت الصباح والصباح أنت.. ارتبكت ثم قلت:
صباح الورد لأجمل ورد.. يومها التقت عيناى بعينيك
وتعانقا طويلا.. ولاح من ذلك الثغر برق اتبعته غيمة
فأمطرت قلبي بعشق للأبد.. تعرفين يا حبيبة: ما زلت

عنيدة ومتكبرة كما كنت.. مازلت كما أنت لم تتغيري.. لا
تحبين الفوضى.. ترين الناس دونك.
غضبت حبيبة، فضحك أبو فهد فأعرضت بوجهها عنه.
- انظري ما أجملهم كالعصافير في الحديقة
لأصواتهم زقزقة. (أبو فهد وهو يمسك بيدها)
- حسام تعرفني لا أحب الفوضى.. تشتت
أفكاربيكفي فهد وهد يأتي غرباء يلعبون معهم.
قطب أبو فهد حاجبيه. بدأت علامات الاستغراب تبدو على
وجهه متسائلا:

- أي غرباء؟
- ثريا.. لا أطيق رؤيتها.. لا أحب أن تلعب
مع أولادي، سأمنع هند من مرافقتها.. أخاف على هند من
صحبتها.
- ما هذا الكلام الذي أسمعه؟!

تغيرت ملامح وجهه وغضب...
- هند تحب ثريا.. وثريا فتاة مهذبة وهادئة
وجميلة، أبوها رجل صالح طيب القلب وقيل كل شيء
جارنا يا أم فهد، إن نظرتك الدونية للناس ولمن حولك
تلازمك أينما تكونين وهذه الصفة التي أبغضها فيك..
تترفعين عن الجميع وترين نفسك الأكمل والأعلى،
تواضعي يا حبيبة، يحبك الجميع.. التواضع يرفعنا في
قلوب الآخرين، كيف نتكبر ونحن خلقنا من نطفة؟! كيف
نتكبر ومصيرنا حفرة؟!

- أنا كما أنا لا أتغير.. تعجبني نفسي فقط.
(ردت أم فهد مزمجرة)

- يا أم فهد، الطائر حينما يحلق بعيداً
ويرتفع يصغر في عيون من ينظر إليه.. كذلك من يتكبر..
دعي ثريا وشأنها.. أغرسي في نفوس أولادك حب
الآخرين، أخبرهم أن الرفعة في الأخلاق، والصفات
الحميدة، والمكسب هو حب الآخرين لهم وقربهم منهم،
ولا تغرسي فيهم احتقار الآخرين، علمهم أن في التواضع
رفعة وعلوًا.

(٤)

قصاصات ورق

- ثريا كم مرة يجب أن أقول لك.. أوراقي،
كتبني، دولابي، لا تقتربي منها.. (قال عمر)
- دخلت غرفتك، فكانت غارقة في
الفوضى فرتبتها لك، رتبت أوراقك، وأقلامك وكتبك
فوق طاولتك. (قالت ثريا)
- قصاصات الأوراق أين ذهبت بها؟ (قال
عمر)
- لم أجد أية قصاصات.. وجدت بعض
الأوراق مرمية على الأرض، فرميتها في سلة
المهملات. (ردت ثريا)
- أسمعت يا أمي؟ (قال عمر مغتاظا)
أوراقي رمت بها -ابنتك الوقورة- في سلة المهملات.
- اهدأ يا عمر، أنت تتعبني، وتتعب أختك
في ترتيب غرفتك. (قالت أم أحمد)
- لماذا حين ترتبينها أنت يا أمي، لا أفقد
شيئاً؟! (قال عمر) وعندما ترتبها ثريا تضيع مني أوراقي
وقصاصاتي؟
- أنا لا أحب الفوضى أضع كل شيء في
مكانه. (قالت ثريا) الكتب في رفوف المكتبة، الأقلام في

- المقلّمة، والأوراق على الطاولة بالقرب من المصباح،
المزهريّة وسط الطاولة...
- القصاصات في سلة المهملات (عمر
ساخرا).. هذا مكانها صحيح!؟
- ابحت عنها إن كانت مهمة وأخرجها..
(ردت بكل هدوء)
- أخرجيها أنت؛ أنت من رميت بها. (عمر
مزمجرا) ألا تعرفين ما بها؟
لماذا إذن رميتها إن كانت مهمة؟ (ردت ثريا وهي تنظر
إليه بنصف طرفها)
نفخ أوداجه وقطب عن جبينه، واقترب منها خطوة صارخا
بأعلى صوته:
- قلت لك أخرجيها..
وإذا بصالح ومعه أحمد عائدين من المتجر بعد العشاء يفتح
باب البيت وهو يهتّز صراخًا.. وما أن لمحهما عمر حتّى تسمّر
مكانه وسكت وكأنه ابتلع لسانه.
- ما هذا الصراخ وهذه الضجة؟ (قال
صالح)
- لا شيء.. تعرف عمر وعصبيتّه. (قالت
أم أحمد)
نظرت ثريا إلى أبيها، ولمعت الدموع في أهدابها ثم جرت
خطاها إلى غرفتها، وأغلقت الباب..
- ماذا يجري هنا؟ ما سر هذا الصراخ يا
عمر؟ (قال صالح)
- ثريا يا أبي! (قال عمر)
- ما بها؟ (قال صالح)

- قلت لها ألف مرة لا ترتبي غرفتي لا
تقتربي من أوراقي وكتبي لكنها لم تفهم... لقد فقدت بعض
أوراقي وقصاصاتي.. واعترفت أنها رمت بها في سلة
المهمات. (قال عمر)
- لو أنك ترتب غرفتك بنفسك لما فقدت
شيئا، أنت تترك كل شيء كما هو.. ثم تغضب إن رتبت
ثريا أو أمك غرفتك. (قال صالح)
- أمي لا ترمي بشيء؛ حينما ترتب غرفتي أجد كل أشيائي
كما هي. (قال عمر)
- أنا متعبة لا أستطيع أن أرتب كل شيء،
ثريا صبية وقوية وكل لمسة بيدها جميلة. (قالت أم أحمد)
- أنتما تدلانها كثيرا، صارت مغرورة
بسبب دلالكما. (قال عمر)
- تقدم صالح نحو عمر وجبينه ينضح عرقا، وما كاد عمر
يهز رأسه حتى التقط والده أذنه اليسرى النقاطا انتفض له جسده
متألما من شدة القرص. وقال له مؤنبا:
- تركت لك حرية اختيارك أن تمارس
هوايتك، وحبك للشعر، والكتابة.. لم أضغط عليك لتكون
مع أخيك في المتجر... أتيت بعمال دفعت إليهم الأجر من
أجل أن تجد الوقت الكافي في دراستك وتنمي موهبتك. لم
أتركك لكي تزعج أمك وتصرخ في وجه أختك، وتؤنيها
تتعب من أجلك فلا تجد منك كلمة شكر وتقدير.. هذه آخر
فرصة لك، أبق هادئا.. وإلا سأضطر أن أجعلك عاملا في
المتجر، وتكون بجانب أخيك وتبدأ العمل معه.
- عمر وهو يضع يده على يد أبيه التي يمسك بها أذنه:

- أعدك أنني لن أكررها؛ اطلق سراحي يا
أبي، إنك تؤلمني..
أبعد صالح يده.. تحسس عمر أذنه، أطرق رأسه، ثم
ركض نحو غرفته وأغلق الباب.
- قسوت عليه يا صالح، دلتته ثم ها أنت
تتبع ذلك الدلال بقسوة منك.. (قالت أم أحمد)
- ليست قسوة؛ لكن هذه المواقف تحتاج
حزما وشدة.. سأذهب وأرى ثريا.
طرق باب غرفتها... ثم فتح.. كانت منكبة على وسادتها
غطت نصفها بلحافها.. رفعت رأسها وهي تكفكف دموعها،
تأملها.. همس بينه وبين نفسه:
- آه.. لو تعلمين ما تصنع تلك الدموع التي
تكففينها بأنامك من وجع في قلبي..
مد يديه إليها وأخذ يمسح أدمعها
- يا نجمتي الليل حزين لحزنك..
أين ابتسامتك التي تعزف لي ألحان الفرح؟؟ تبسمت...
- ظهر القمر، وشعشع ضوءه... ثريا لا
تحملني في قلبك شيئاً لأحبيك، هو يحبك؛ لكن تعرفين عمر
سليط اللسان، وعصبي. (قال صالح)
- ظننت أنه سيعجبه ترتيب غرفته، زينت
طاولته بمزهريّة، ووضعت فيها ثلاث وردات من ورود
الجوري الحمراء التي يحبها.. مع ذلك غضب ولم ير
شيئاً؛ إلا تلك الأوراق التي فقدها..
- هو يكتب على قصاصات، ثم ينقلها في
مذكرته فإن ضاعت تلك القصاصات؛ ضاع جهده.

- لكن يا أبي، لم أتعمد أن أرميها وجدتها
مرمية على أرضية غرفته فظننت أنه لا يريدتها.
- حسنا يا ثريا، سيرتب غرفته بنفسه عقاباً
له، حتى يصبح منظماً ويبتعد عن الفوضى.. هيا يا ثريا،
حضري مع والدتك العشاء إني أتضور جوعاً.
- من عيوني يا قمري.
- هيا أسرع يا نجمتي.
- قدمت وجبة العشاء رفاق من الخبز المدهون بالسمن يخبز
في التنور مع أدم من العدس، ذو اللون البرتقالي، الذي تجيد أم
أحمد طبخه، وإبريق شاي أحمر مع النعناع.
- تعرفين يا ثريا، لا أعشق طبخاً ولا أجد
للطعام مذاقاً؛ إلا الذي تجيد أم أحمد طبخه.. (قال صالح)
- وأنا يا أبي، ألا يعجبك طبخي؟ (قالت
ثريا)
- لم تنفردني بالطبخ بعد حتى أميزه مازلت
أرى أنامل أم أحمد في طبخك..
- ضحكت أم أحمد ثم قالت:
- تساعدني ثريا في إعداد الطعام هي
شغوفة بأن تتعلم وستصبح ماهرة.
- لا يا أمي، لن أتعلم الطبخ بعد اليوم،
مادام أبي يحب طبخك أنت..
- أحب الشاي بالحليب الذي تُعده ثريا،
كذلك البطاطا مع التمر الهندي.. هي ماهرة في ذلك..
(قال أحمد)
- حسناً سأطبخ فقط لإخوتي، أما أنت يا
أبي، أدام الله لك حبيبتك.. (قالت ثريا)

قهقق صالح عاليًا، وضحك الجميع.. أنتبهت أم أحمد:

- عمر لم يأت..

نهضت ثريا:

- سأذهب لأعذر له لكي يشاركنا العشاء

- اجلسي يا ثريا.. (قال صالح) هو الذي

يجب أن يعتذر لك لا أنت، دعيه.. فلي حديث معه بعد العشاء.

(٥)

الحلم الدفين

طرق صالح الباب...

- ادخل.. (قال عمر)

دخل صالح، وكان عمر جالسا فوق كرسيه منهمكا في الكتابة، أغلق صالح الباب خلفه، وأخذ بعض الأوراق يقلبها ثم جلس على السرير خلف عمر.. أدار عمر ظهره وجلس قبالة أبيه. هل شاركت بالمسابقة التي حدثتني عنها

- والتي نظمتها مدرستك؟ (قال صالح)

- نعم يا أبي. لقد نالت قصيدتي إعجاب الجميع، فقد كانت قصيدة عن حب الوطن، لقد شارك بعض الطلاب وكنت أفضلهم.. لم تظهر النتائج بعد لكن أتوقع أنني سأفوز.

- أتعرف يا عمر أنني أتوسم فيك حلمي

الذي مات منذ سنين

- أي حلم يا أبي

- اسمع قصتي..

أرهف عمر سمعه، واستنفر جميع جوارحه نحو أبيه الذي بدأ يسرد عليه قصته منذ البداية..

- حينما كنت في عمرك كان الشعر شغلي

الشاعر، وشغفي بالأدب لا يوصف.. أطلقوا علي شاعر المدرسة والشاعر الصغير كنت فخوراً بتلك الألقاب دون

منازع.. في المسابقات الأدبية كان اسمي في الصدارة..
كانت أُمي وعمتك مريم تشجعاني وتقفان بجانبني دومًا.
- وجدي! (قال عمر)
أطلق زفرة كالبركان أيقظت ذلك الحلم الدفين في أعماقه
وأمرتته من حممها أسي..

- جدك يا عمر، كان لا يهتم بكل ما
حققت.. كلما أتيت له بشهادات التقدير، والجوائز التي
كنت أحصل عليها، يقاطعني مؤنبًا: "لا تتشغل بشيء
غير الحقل". أتعهد الغرس وأرث المبيدات واسقي الزرع
بالتقطير لا الغمر وأبعد الغرس الذي أصابه المرض عن
الغرس السليم.. إلخ، فأعود إلى أُمي أجر خيبة الأمل،
والعبرة تخنقني: "لماذا يا أُمي لا يفرح بما أحققه؟ والكل
في القرية يتمنى أن أكون ابنه". كانت أُمي تخفف عني
بعض ما أجد، وأختي مريم تبعث في روعي السرور،
فتفاخر بي صديقاتها، فيتحدثن عني وعن قصائدي.. في
ليلة باردة مقمرة تجمع أصدقائي وكان في ضيافتهم شاعر
مرموق من شعراء القرية سكن المدينة، ولطالما تمنيت
أن ألتقي به.. أستأذنت والدي وبعد عدة محاولات من أُمي
وافق بشرط؛ ألا أتأخر لأن في الصباح لدينا عمل في
الحقل.. ذهبت والفرحة تسبقني.. ألقيت بعض قصائدي
فأثنى عليها الشاعر ومدحني. مر الوقت سريعًا ولم أشعر
به حتى بدأ القمر ينحدر نحو المغيب، قفزت من مكاني
مسرعًا، والخوف يملأ جوانحي، وحين وجدت أبي عند
الباب ارتعدت فرائصي.. أنبني كثيرًا، وتوعد ألا يسمح
لي بالذهاب مرة أخرى. تخرجت، شعرت أنني أقترُب من
حلمي، سأذهب إلى المدينة، ثم سألتحق بالجامعة

وسألتخصص في قسم الأدب سأحلق في سماء حلمي فقد أصبحت قريبة مني وأكاد ألامسها. بدأت السنة الدراسية وذهب أصدقائي إلى المدينة بعضهم زاول العمل هناك والبعض ألتحق بالجامعة. حدثت أُمي عن رغبتني صمتت.. فأفز عني صمتها، وهي التي أستمد منها قوتي، رأيت في عينيها حزنا وأسى، فأدركت أن حلمي أصبح كسير الجناح قالت: "اسمع يا صالح تعرف تعلق أبيك بك وحبه للحقل، وهو ينتظر سنوات تخرجك لكي تساعد في الحراثة والعناية بالحقل". قاطعتها: "وحلمي، ومستقبلي! هل سأدفنه هنا في الحقل؟". "يا بني حدثت أباك عن رغبتك؛ لكنه نهمني بقوة وزجرني". خرجت أركض بعيداً عن منزلي بعيداً عن الحقل بعيداً عن القرية.. صعدت أعلى جبل في القرية لم أتذكر أنني طلعت من قبل.. بكيت ذلك اليوم بحرقة... حتى شاركني الجبل البكاء، رأيت الشمس تودع القرية فأيقنت أنني أودع حلمي من قمة ذلك الجبل.. عند الغروب عدت إلى المنزل ونمت باكراً.. حاولت أُمي، ومريم إقناع أبي لكن دون جدوى. كانت مريم حينما تراني تبكي.. أصابتنني نوبة من الصمت، صرت لا أتحدث إلى أحد كل وقتي في الحقل كما كان يريد والدي الحقل الذي كنت أعشقه، وأكتب قصائدي على ضفافه، كنت أتغني بثماره بجماله بزقزقة العصافير على أغصان أشجاره. أقبل قطرات الندى على أوراق أشجاره، وتلهمني أشعة الشمس عند الغروب، وأنا أتمشى على جوانبه أروع القصائد.. ألا ذلك الصباح شعرت أنني دفنت حلمي في تربته كنت واثقا أنه لا ينبت أبداً مثل غرسه الذي أعتني به، فحلمي مات في تربة

الحقل الخصبة.. بعد موت جدك تحملت كل شيء، أمي ومريم والحقل وما زال حلمي دفين أعماقي.. مريم كانت تتعب معي كثيرًا في الحقل، وتساعدني، كانت أختًا وصديقة.. كانت علاقتي بها أكبر من علاقة أخ بأخته، فأنا من تبوح له بكل شيء؛ كنت قريبًا منها جدًا، لم أتذكر أنني أغضبتها يوما أو غضبت منها. لم يدم حبنا طويلًا. مرضت مريم مرضًا عضالًا.. وبعث نصف الحقل لعلاجها، طفت بها كل مستشفيات عدن، ورقدت في مستشفى عمر المختار (الصداقة) لكنها في كل يوم تزداد سوءًا. أشتريت بيتًا في مدينة المنصورة، وأخذت أمي لكي تكون قريبين من المشفى الذي ترقد فيه.. في تلك الليلة وأنا بجوارها كانت فاقدة الوعي، كنت قريبًا منها أهمس إليها: "متى ستفيقين يا شقيقة القلب، هدي مرضك، غابت ابتسامتي؛ حين غيبك المرض عني". سقطت من عيني دمعة، وقعت على كفها فحركت كفها نحو كفّي وأمسكت بي. كانت هي المرة الأولى التي تتحرك فيها منذ عام.. أمسكت يدها سمعت صوت النبض يصيح.. ورأيت الأطباء يركضون نحوي.. لم أدرك حينها مامعنى ذلك الصوت؟ لماذا يركضون حينما سمعوه؟؟ أخرجني أحدهم، وأغلق الباب. أنقبض قلبي واختنقت.. لا أدري ما يحدث؟ خرج أحدهم وقال: "هل تقرب لك مريم؟" قلت: "نعم؛ أختي؟ هل ماتت؟". قلتها وأنا أرتجف.. صمت.. أمسكته بعنقه وهز زته: "ماتت؟! قال: "نعم وانصرف".. ملأ صراخي، وصراخ أمي المشفى. أظلمت الدنيا في وجهي فقد مريم، يعني أنني فقدت نصف قلبي. بعدها لازمت جدتك الفراش، وبقيت في المدينة،

كانت أمك تعنتني بها وتقوم على شأنها.. عام واحد ولحقت
أمي بمريم.. فقدت كل شيء حلمي وعائلتي بعت ما تبقى
من الحقل واشترت منزلًا في حارة البساتين بجوار
الشارع الرئيسي.. وانتقلنا إليه أنا، وأمك وأحمد كانت
أمك حاملًا بك.. بعد أن بعت المنزل، لم أستطع العيش
فيه، فصورة أُمِّي تلاحقني في كل زواياه. فتحت البقالة..
بدأت حياتي في المدينة وفي هذا الحي الذي أعرف كل
زاوية فيه، وفي المسجد الذي أجد راحتي فيه.
كان عمر ينصت إلى أبيه بكل شغف.. يحدق إليه، وقد
اتسعت عيناه عند كل كلمة يسمعها مندهشًا مما سمع.. من حكاية
مترامية الأطراف. أردف عمر وهو يضع كفيه على خديه:
أكلّ هذا الحزن، والفقد والألم تحمله يا

أبي؟!

نهض صالح وضرب على منكبي عمر ثم قال:
- ألم أقل لك أنني أتوسم فيك حلمي..
- سأبذل قصاري جهدي لتحقيق حلمي الذي
هو حلمك مادمت تقف بجانبني وتساندني.. سامحني يا
أبي، أعتذر عما بدر مني تجاه ثريا.
- ثريا ضعها في حنايا عينيك.. أتعرف
كنت أظن أنني أتعس إنسان وأن الذي مر بي لم يمر
بأحد.. لكن حينما دخلت ثريا حياتي خجلت من نفسي،
وأدركت أنني جاحد النعمة.. ثريا كوردة في الصحراء لا
يصدق من رآها هناك كيف لها أن تنبت ومن الذي اعتنى
بها بين تلك الرمال القاحلة.. كن عضدها الذي يشد
ساعدها.. كن لها النور الذي تهتدي بها في ظلمتها، إن
الأخ في قلب أخته بمكان. حتى وإن صار لها زوج،

وأبناء يظل أخوها بناءها الشامخ الذي تعتز به.. صحيح
قد تقول: "هي ليست أختي من أمي وأبي" لكنها أختك من
الرضاعة لجأت إليك فاحمها وأرجو أن يمد الله في
عمري حتى أسلمها رجلا يضعها في شغاف قلبه.
- أطل الله عمرك، وجعلك ذخرا لنا..
سأحميها يا أبي، لن أخيب ظنك بي.
- بارك الله فيك! حقق الله مناك، وما
تصبو إليه!

الفصل الثاني

(١)

حب من طرف واحد

المشاعر الخجولة التي تختبئ في أعماقنا نداريها؛ فالبحر بها مؤلم، وكتمانها أشد ألمًا. توطدت صداقة هند بثريا.. فكانتا تذهبان إلى كلية العلوم الطبية في خور مكسر معًا وتعودان معًا، هند تدرس بقسم الصيدلة بنفقة خاصة لأنها لم تنجح في السنة التحضيرية، بينما ثريا تدرس في قسم التمريض، بعد أن اجتازت الامتحان والسنة التحضيرية بتفوق.. كان حلمها منذ الصغر أن تصبح ممرضة مميزة، فتفوقت في دراستها، إلا أنها لم تكن تختلط بمن حولها كثيرًا، فلا تكاد توجد لها صديقات مقربات، هن فقط بعض زميلات يتقربن منها من أجل أن تشرح لهن بعض المفاهيم التي تصعب عليهن.. فهي لا تبخل على أحد من أصدقائها يطلب منها مساعدة.. تخرج من قاعة المحاضرات وتذهب لملاقة هند فتجدها في حديقة الجامعة وإن تأخرت تذهب لتراها في قاعتها..

هند ومجاهد معًا في نفس التخصص، مجاهد طالب متفوق فهو الأول على دفعته.. كان يحلم أن يصبح طبيبًا؛ اختار تخصص الطب العام، فاجتاز امتحان القبول بجدارة، ودرس السنة التحضيرية بكل جد؛ السنة التحضيرية تشكل عتبة الدخول لكليات الطب بمختلف تخصصاته وهي سنة صعبة في موادها والمشرفين المختصين يقومون بفرز الطلاب فيها بناء على اختبارات مركزية دقيقة ومضنية للطلاب فلا يجتازها إلا الطلبة المتفوقون لذلك تشكل عبئًا على الطلاب وذويهم أيضًا فالبعض من الطلاب يتوقف فيها، وينجح من كان له باع طويل في الاجتهاد.. والبعض يتابع

دراسته على نفقته الخاصة، وأما من لم يحالفه الحظ في اجتياز الامتحان فقد عاد يجر خيبة الأمل.. ومن هؤلاء الطلبة كان مجاهد.

أصابه اليأس والإحباط.. وهو يرى صديقه عامر في السنة التحضيرية قد نجح. وعامر هذا كان يستعين بمجاهد ليساعده ويشرح له ما صعب عليه من مواد وما أكثرها.. بذل مجاهد جهدًا كبيرًا في مساعدة عامر، ولكن عامر حقق المراد واجتاز السنة التحضيرية وأكمل مسيرته بلا معاناة، ولا غرو فأبوه من أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة، ولأبنائه مقعد في الجامعة يضمن لهم التخصص الذي يرغبون به..

وقع مجاهد في يأس شديد بعد صدور النتائج.. توسل إليه والده أن لا يدع لليأس في حياته طريقًا، فاستجاب لوالده الذي تحمل عبء تكاليف تدريسه راضيًا سعيدًا بولده المثابر.

مدينة خور مكسر تبعد عن دار سعد مسافة (١٥.٨ كم) تستلزم ٢٩ دقيقة للوصول إليها عبر الخط البحري، يوفر له والده مبلغًا من المال كل شهر ينفقه في شراء الملائم المكثفة، والمواصلات الشاقة.

تطلب الأمر من مجاهد أن ينتظر عامًا آخر.. ليتقدم إلى قسم الصيدلة.. فتفوق في الامتحان والسنة التحضيرية.. وبدأ دراسة الصيدلة مجاهد شاب وسيم، طويل القامة، عريض المنكبين، حنطي البشرة، أدعج العينين، تغطيها رموش طويلة، وحاجبان كقوسين، شعره أدعج طويل يصل إلى شحمتي أذنيه، يملك ابتسامة جذابة، ذو خلق وسمات ميزته عن الجميع ورفعته في قلوبهم.

كان مرجعاً لزملائه يكاد لا يجد وقتاً يرتاح فيه، فالكل يلاحقه لمعلومة يريدّها أو سؤال أو شرح لبعض المواد التي استعصت عليه.

تميز بذكاء فطري ونباهة عالية، أما هند، فكانت كغيرها من زميلات مجاهد يقضي معها بعض الوقت ويوضح لها ويشرح لها ما لم تستوعبه من المحاضرة، وهي تكن له من الود ما لا يعلمه.. ذات مرة كان مجاهد منهمكاً يشرح لها وهي شاردة الذهن تتأمل ملامحه..

- ترى.. هل يدري أن قلبي ينبض له؟ أن صوته يشعّرنى بالدفع.. حينما أكون بقربه لا أرى أحداً ولا أريد أحداً أن يقترب منه، لينته يدري أنني أحترق من الداخل عندما يقتربن منه.

- هند هل فهمت؟ (قال مجاهد)

- هاه.. نعم، فهمت. (قالت هند)

هكذا كان حالها يوماً بعد يوم، وحبّه يتغلغل في أعماقها.. تعرف مجاهد على ثريا حينما كانت ترافق هنداً وتجلس معها.. ثريا فتاة خجول ترتدي عباءة فضفاضة أنيقة وغطاء على رأسها أسود، تبدو من خلاله قمر بدا من وسط الظلام.. ليست منتقبة ترك لها والدها حرية ارتداء النقاب، لا تضع على وجهها أية مساحيق لتبدو أجمل، فهي جميلة متفتحة كزهرة نرجس يظهر عليها من ملابسها البساطة. فهي لم تبهرها تلك المظاهر في الجامعة رأت فيها أشكالاً وألواناً.. فالجامعة عالم مفتوح هكذا كان بالنسبة لها كانت ملتحفة بالحياء.. لاتب المغامرة بأي علاقة مقربة. أما هند فيظهر عليها الترف في لباسها، من رآها عرف أنها من طبقة الأغنياء. في المرة الأولى التي رآها مجاهد تقف بجوار هند سأل هند عليها وعرف أنها ابنة الشيخ صالح فهو يعرفه ويعرف

إخوتها. عرض عليها المساعدة فيما تحتاجه من كتب.. لقد كانت تبحث عن كتاب تحتاجه في ترجمة بعض المصطلحات الطبية.. فقد حدثته هند عن ذلك.. كان مجاهد مهتما بالأمر.. بحث عن ذلك الكتاب وأحضره من بعض أصدقائه. فرحت ثريا حين أحضر لها مجاهد الكتاب، وشكرته وأثنت عليه. لم تسعه الفرحه حينما رأى تلك الابتسامة التي ارتسمت على محياها كان شاردًا يتأملها وهي تقلب أوراق الكتاب. همس في نفسه:

- لا أدري هل تقتبسين من جماله أم هو من يقتبس من جمالك.

هند وهي تحمل بيدها وردة حمراء:

- ثريا تعرفين أود أن أبوح بمشاعري له.
ردت ثريا مزمجرة:

- هل حصل لعقلك شيئاً؟ لماذا لا تستمعين إلي، سنتعبين يا هند، هو لا يناسبك.. كما تعرفين هو بسيط ولا يصل إلى طبقكم، أنت ابنة حسام من أغنياء المدينة..
رمت هند بالوردة ثم ردت:

- لماذا تغلقين كل باب أفنحه؟ ماذا أفعل، كل يوم يزداد تعلقي به. ازدادت تعلقا به، وزاد تعلقا بمن خطفت قلبه من أول لقاء.

تغيبت هند بضعة أيام عن الجامعة.. تلك الأيام قربت مجاهد من ثريا.. بدأت ثريا تلاحظ اهتمامه بها، وقرأت في عينيه الكثير من الكلام.. كالظل تراه أمامها وخلفها. شعرت ثريا بالحيرة وأدركت أنها بين أمرين كلاهما أمر من الآخر.. بدأت تبتعد عنه لا تتحدث إليه إلا قليلاً. حينما يكون مجاهد مع هند لا تقترب منهما، تتوارى بعيداً عنهما.. لاحظ مجاهد صمتها الطويل

وانزواءها. لم يعرف ما السبب؟ لم تغيرت؟ حين يراها يترك كل شيء من حوله ليتحدث إليها بأي شيء.. المهم أن يحدثها.. جلست هند بجوار مجاهد نظر إليها:

- هند أريد أن أحدثك حديثاً خاصاً (قال مجاهد) لا أريد أحداً أن يعرفه.

تسارعت نبضات قلبها.. وارتجفت يداها.. وحدثت نفسها:
- أخيراً جاءت اللحظة التي انتظرتها.. سييوح لي بحبه.. سيخبرني بشعوره ومشاعره.. يا سعادتي أراني كطاووس
نفش ريشة وتخايل في مشيته.

هند بعد برهة:

- نعم تحدث أسمعك.

تحدث مجاهد بكل صراحة وعبر عن تلك المشاعر التي خبأها سنوات قذفت حممها كبركان لم يستطع تحملها أكثر..
انصرف مجاهد وهند غارقة بين ذلك البوح الذي بعثرها.. تمالكت نفسها وودعته بابتسامة رضا..

- أبحث عنك وأنت هنا. (قالت ثريا)

نظرت هند إليها وعيناها تذرفان أدمعها، وتلك الوجنتان احترقتا بحرارة دمعها.. تعض على شفثيها والعبرة تخنقها

- هند ما بك.. لم تبكين؟ (قالت ثريا)

لم تتبس هند بكلمة كلما نظرت لثريا انسكبت دموعها دون أن تشعر نهضت هند، ومشت من بين يدي ثريا دون كلام..
أمسكتها ثريا بكلا منكبيها هزتها.

- هند ماذا حدث؟ هل تعرض لك أحد؟ أين كنت؟

- اتركيني يا ثريا.. دعيني في حالي دعيني أألمم بقايا قلبي
كسرتيني يا صديقتي، يا رفيقة دربي.

- صعقت تلك العبارات ثريا لا تفهم شيئا، أخذتها دوامة من الغموض والحيرة..
- أنا أكسرك بماذا؟ أفهميني لا أدري عم تتحدثين؟! (ثريا والدهشة تملؤها)
- تعرفين جيدا أنت تلعبين معي لعبة الغباء.
 - بحلقت ثريا بعينها:
 - أكاد أجن لم أفهم شيئا تتحدثين عني أنا...
 - نعم أنت؟ تعرفين أنني أحبه بجنون.. كنت أظن أنك تتصحيني أن لا أبوح بمشاعري لأنك تحبينني وتحرصين على مشاعري لم أكن أتوقع أنك تحبينه، لماذا لم تحدثيني أنه يحبك وأنك تحبينه؟ لماذا أردت قتلي وحرقت مشاعري؟
 - من هذا الذي أحبه؟ هذ أفصحي أرجوك!
 - ومن غير مجاهد.. تعرفين ماذا حدث اليوم.. طلب مني أن اجلس معاً في مكان خاص أتدريين، أين ذلك المكان؟ مكان خاص يتواجد فيه العشاق والمقربون من بعض.. خلقت بعيدا.. وطرت كفراشة ملكية رفرفت بجناحيها حوله تأملته وأنا متلهفة وعطشى للروح الذي انتظرت منذ سنين فراشة بسط لها يديه بكل رقة رفرفت ووقفت عليها ثم أغلق كفيه، كادت تموت بين أنامله فأطلقها بعد أن تركت جمال ألوان أجنتها ملتصقة بكفيه.. أطلق سراحها.. فطارت بجناحين سوداوين.. أعترف بحب يداريه ويخبئه لسنين.. ذلك الحب ليس لي نعم ليس لي.. أنه لك أنت يا ثريا إنه يريدك أنت وأنا نقطة وصل بينك وبينه.
 - لم تصدم ثريا من الذي يحدث لأنها كانت تتوقع ذلك.. رأت ذلك في أحداق عينيه.

- كنت أظن أنه سيبوح به لي قريباً لم أتوقع أنه سيقذلك مرتين.

أمسكت بهند واحتضنتها:

- هند تأخر الوقت سنكمل الحديث في البيت.

زارت ثريا هند في بيتها وعند دخولها وجدت فهد عند باب غرفة هند، كان واقفاً يتأملها وهي تطرق باب غرفة هندلمحته بطرفها فابتسمت، دخلت ثريا وأغلقت الباب.

جلس فهد في الصالة وأسند ظهره على الأريكة البيضاء وأمامه مزهرية مملوءة بباقة ورد جوري أبيض وأحمر اللون فأخذ منها وردة حمراء يداعبها تأمل الثريا المعقفة في الأعلى والأنوار تتلألأ منها والابتسامة تملأ وجهه تتم:

- لاح برقٌ من ثغرها بشر قلبي بغيث منهمر

قتلتني بسهمها ليتها تدري أنني قتيلاً

كانت هند في حالة يرثى لها نائمة على سريرها والدمع لم يجف من مقلتيها.. ستائر النافذة ذات اللون القرمزي تحجب ضوء الشمس ومصابيح الغرفة مطفاة.. طرقت ثريا الباب ثم دخلت، أزاحت الستائر عن النافذة فالوقت مازال قبل الغروب جلست بالقرب منها، نهضت وهي تمسح دموعها.. وردة ذابلة.. سقطت بتلاتها..

- هند اسمعيني.. أعرف حبك لمجاهد وأعرف جيداً تلك

النهاية كنت أظن أنني سبب لتلك النهاية لطالما حدثتك أن تتبعدي عنه لم أرَ تقربه إليك حبا وكنت أخاف عليك من تعلقك به.. صدقيني حتى وإن أحبك لن ترضاه أمك يا هند.. تعرفين ذلك جيداً.. أنا أدركت اهتمامه بي حاولت أن أبعد عنه لا أريده أن يتعلق بي فأنا كل همي دراستي فقط، لا أريد شيئاً يشغلني عنها.

- هو ينتظر ردك فقد حملني رسالته وأنا أوصلتها لا يهم ما أعانيه لا أريده أن يعرف بحبي له. سأكون قوية ومكابرة.
- أنا من سأرد عليه بكل صراحة تمنيت أن يحبك مثلما أحببته لكنه تجهل مشاعرك هو يعرف حبه لك يا هند وتعلقك به.. فقد حدثني ذات مرة أنه يشعر بذلك الاهتمام لكن هو أصغر من أن يخطب بنت حسام.
- لم أخفيت عني ذلك وتركتني غارقة في وهمي لم تركتني أغرق وطوق النجاة بين يديك؟
- تكلمت معك لكنك لم تفهميني..
- بكت هند حتى انقطع صوتها وبكت معها ثريا مرضت هند ولزمت البيت عدة أيام، سأل مجاهد ثريا عنها فأخبرته أنها مريضة. أدرك مجاهد ما حدث.. لكنه لم يتوقع أن تمرض، وتصل للحالة التي وصلت إليها.. رأت ثريا حيرة مجاهد واحترت أكثر كيف تبدأ الحديث معه كيف تحدثه أنها لا تهواه؟ كيف تخبره أن قلبها ليس معه؟ لقلبها نبض لم يأت صاحبه بعدكيف تعلق قلبه بمن لا تبادله نفس شعوره وكسر قلبا يتمنى قربه ووده.. أحضر بين يديه بعض المثلجات والعصير الذي تفضله ثريا، طلبت منه أن يجلس على أحد الرفوف تحت ظل الشجرة قدم لها العصير؛ فتبسمت وشكرته.. فبدأت حديثها:
- قد لا نشعر أننا للبعض حياة من يهتم بك فهو يريدك يريد قربك.. فإما أن تبتعد ليفهم أن قلبك لا يشعر بذلك الاهتمام وإما أن تبادله اهتمامك.
- صحيح.. البعض لا يفهم مهما حاولت، أن تبتعد عنه يظل يلاحقك حتى لو ابتعدت. (قال مجاهد)

- قد يكون وصل لمرحلة التعلق فهو لا يلام فقلبه من يلاحقك.
- نعم قلبه من يلاحقك.. أظنك قد عرفت كل شيء وهند قد أخبرتكَ.
- فعلاً.. حدثتني.. أختر من يحبك سيحفظك ويحافظ عليك ربما من تحب لن يبادلك نفس مشاعرك وهناك من تغلغل حبك في أعماقه قتلته باعتراك بحب غيره.
- كنت أرنو أن أظفر بمن أحببت، لطالما داريت تلك المشاعر التي عصفت بي اجتاحتني فجأة دون سابق إنذاروها أنا أجد نفسي كسير الجناح.
- لم نعلق قلوبنا بأشخاص لم نعرف مشاعرهم تجاهنا لم نحرق أنفسنا بأنفسنا.
- ليس بإرادتنا.
- إذا لا نلوم من تعلق بنا ولا نلوم قلوبنا إن تعلقت بأحد.
- حب من طرف واحد صنع في قلب مجاهد وهند ندبة ملتتهبة لاتندمل.. هو احتراق من طرف واحد.. كان مجاهد قوياً نوعاً ما أو ربما يتظاهر بالقوة فقد ظلت علاقته بثرية أخوية كما وعدھا، بعكس هند التي أثر فيها ذلك الحب وأصبحت قليلا ما تتحدث غابت ابتسامتها المرحية، لا ترفع طرفها في مكان يتواجد فيه مجاهد.. لم تعد تحتاجه في شيء تكن له كرها يصنع بينها وبينه آلاف الأمطار، فالقلوب التي تحب بصدق إن كسرت لا تجبر.. تقسو ونادرا ما تخوض تجربة أخرى.

(٢)

أسيل

- افتقدتك كثيراً، يا صديق الطفولة. (قال فريد)
- الله يا فريد قد نسيت ملامحك، الغربة سرقتك منا أين أنت؟ (قال فهد)
- في البيت.
- حقاً هل عدت إلى عدن؟
- نعم؛ قبل أسبوع.
- ما رأيك أن نلتقي؟ أمرٌ عليك ونذهب إلى ساحل صيرة، ونمرُّ بصهاريج عدن.. ونعيد الأيام الخوالي.
- حسناً.. موافق..
- التقى فريد بفهد بعد سنوات من الفراق، تعانقا ونشرا ذكريات الطفولة على رمال الشاطئ.
- الله يا فهد لقد ازددت جمالاً ووسامة. (قال فريد)
- وأنت يا فريد تغيرت لو لم تشر لي بيدك لم أعرفك أين فريد صاحب الجسم الضخم وتلك العضلات التي كان يباهي بها؛ والصوت الجهوري؟! وتلك الضحكة الساخرة التي يطلقها فيضحك لصداهها الجميع؟! عيناك مرهقتان.. ذابلتان.. تحتها أقيمت مراسم عزاء..
- صمت فريد.. ثم مشى.. وقف أمام البحر.. وأمامه ذلك الصرح الشامخ قلعة صيرة التي تقع على الجزيرة المعروفة باسم صيرة شرق مدينة كريتر. وهي جبل يحيط بها البحر من أربعة جوانب، حيث يبلغ ارتفاعه ٤٣٠ قدماً فوق مستوى سطح البحر.. هذا معلم تاريخي تعرف به مدينة كريتر شكل

في عمق فريد حالة من الشوق وأثار ذكرياته الهاجعة في
عمق سحيق من قلبه موجعة كاوية.
أمواج البحر هائجة وصوت هديرها يملأ الساحل، كان فهد
ينظر إليه وأدرك أن صديقه تلاطمت به أمواج الحياة وهاجت به
تماما مثل تلك الأمواج العاتية أمامه.

مشى فهد نحو فريد ووضع يده على كتفه:

- أتدري يا فريد حين هاتفتني ليلة البارحة، حلمت أنني
أركض خلفك وأنت تهرب مني.. لم ألق لذلك الحلم بالآ،
ولكن الآن فقط عرفت معناه.. تعال وبح لي يا صديقي،
فأنا كذلك غارق في بحر لا ساحل له.

جلس فريد وبجواره فهد يحدق به.. أطلق فريد زفرة فتحت
بابا تدفق من خلفه بوح صامت:

- أتدري يا فهد معنى الغربة؟ ليس مغادرة الوطن فقط.. ولا
فراق الأحبة.. الغربة أن تعيش بجسد دون قلب، أن تموت
كل أحاسيسك ومشاعرك وتصبح شخصا لا يبالي بشيء
حتى ابتسامتك.. تتلاشى وتموت ببطء.. لا شيء يتغير
فيك، سوى أنك على قيد الحياة.

مات أبي وترك لي خمس أخوات، أنا أكبرهم.. ترك لنا
ما يسد رمقنا لم نكن نحتاج لأحد.. تركت دراستي وبحثت عن
عمل هنا وهناك.. تعبت وأنا أبحث وزاد همي يوم أخبرتني
أمي أن "أسيل" قد تقدم إليها خاطب.. "أسيل" التي نسجت
خيوط حبها في قلبي.. لا أهنأ بنوم حتى أسمع صوت
ضحكتها، كغيمة تمطرني بالفرح كلما حزنت.. كزهرة
الياسمين تقوح عبقا يعانق شغاف قلبي.. أسيل.. أبنة خالي..
كل وقتها في بيتنا.. مع أخواتي.. فهمت بها وبادلتني الهيام
صمنا ولوعة.. لم أتقدم لخطبتها أردت أن أتمكن من عمل

وأستقر.. وحين سمعت أن أحدهم تقدم إليها ورفضت.. تقدمت إلى خطبتها فقصم خالي ظهري.. بمهرها، وطلب مني ما لم يطلبه من الغريب.. كان خالي جشعا يحب المال فوافقت من أجلها..

ما كان أمامي إلا الاغتراب.. فقد رأيت الكثيرين قد تحسنت حالتهم الاجتماعية بعد سفرهم وهجرتهم.. وضعت الخاتم في إصبعها وهي تغالب دموع الفراق.. فقد عرفت أنني في اليوم التالي مسافر إلى خارج الوطن.. مرت سنتان على سفري وفراقي لأسيل ولأهلي وأنا لم أستقر في عمل محدد.. ذقت كؤوس المعاناة كلها.. كلما جمعت مبلغاً من المال دفعته للكفالة.. تزوجت أخواتي الأربع ولم تبقَ إلا الصغرى فاطمة، رفيقة أسيل التي لاتفارقها وتشاركها ألمها وانتظارها حين أنه في دهاليز الغربة أبكي، ثم أمسك هاتفي وأهاتف أمي وفاطمة.. وأختم المكالمات على وقع صوتها، فأغلق الهاتف على رنة ضحكتها وضحكتي.. ترن في مسامعي وتمدني ببعض القوة.. في ليلة من ليال الشتاء الباردة، نمت مبكراً، ولكن عند منتصف الليل شعرت بشيء يكتم أنفاسي استيقظت غسلت وجهي.. دون فائدة مازال ذلك الشعور يخنقني تذكرت أمي وأخواتي ولعبت بي الهواجس: "يا الله لطفك".. هكذا نطقت تلك الكلمة دون شعور، خرجت أمشي.. حتى سمعت صوت أذان الفجر ودخلت مسجداً في الضاحية.. صليت، ثم عدت مرهقا ونمت. فتحت عيني ظننت أنني نمت ساعة أو ساعتين.. وما أن لمحت عقارب الساعة أمامي حتى انتفضت من مكاني، لقد صار الوقت عصرا.. أخذت هاتفي أردت أن أهاتف أمي.. مرة ومرتين لا أحد يردهي المرة الأولى التي أهاتفهم؛ فلا يجيب أحد. زاد قلقي.. حاولت أكثر من عشر مرات.. لم يتبقَ على إجازتي سوى خمسة أيام. حاولت أن أقلصها فسمح لي صاحب المحل بعد

تهديد وو عيد.. في اليوم الثاني كانت رحلتي إلى الوطن بعد عامين فقط أردتها مفاجأة لهم وكان معي بعض المال لأدفعه مهرًا لأسيل ويا ليتني لم أعد.. ليتني مت هناك.

فهد وقد بحلق بعينيه:

- ماذا حصل؟

فريد وهو يحبس عبرته، والدموع تلمع بين أهدابه:

- ماتت أسيل.

أجهش بالبكاء.. حضنه فهد ودموعه تنهمر.

- ماذا حدث؟ (قال فهد)

فريد وهو ينتحب:

- أنا السبب؛ أنا قتلتها.

فهد وهو يمسكه بيديه:

- فهمني.. لم أفهم شيئًا.

أردف فريد وهو يكفكف دموعه:

- قبل أسبوع من عودتي تحدثت خالي إلى أمي أنه لا

يستطيع أن ينتظر أكثر فأما أن يعجل ابنك بالزواج وإلا

سأنهي كل شيء.

أسيل باحت لفاطمة أن والدها سيزوجها بأحد التجار

الكبار، فقد رآها حين زار والدها في بيتهم بدأ والدها يلمح لها،

ويسب فريد الذي يتسكع دون عمل ولم يفعل شيئًا حتى الآن.

ضغط عليها وأنهى كل شيء وانتزع الخاتم من إصبعها وهي

تبكي ورمى به إلى أمي وذهب.

مرضت أسيل وتركت مأكلاها ومشربها حتى كادت تهلك

وخالي لم يبال بذلك، كانت تتوسل فاطمة أن لا تحدثني عن شيء

أبدا.

فكتمت فاطمة الخبر عني أسبوعًا وحين كنت أسألها عن أسيل، ترد أنها ذهبت إلى بيت خالتها.. الذي يبعد مسافة عن بيتنا وتعلل غيابها بأن البيت بعيد.. دخل عليها أبوها وفاطمة بجوارها. ثم قال لها:

- غدا سيأتي أبو عبد الرحمن ليطلبك وقد وافقت..
لم تنبس بكلمة.. تركتها فاطمة وهي كطير كسير الجناح، كلما حاول أن يطير وقع على الأرض. وفي الليلة التي اختنقت فيها كانت أسيل تصارع الموت بعد أن شربت كأسًا من السم.. أستيظ الحي على صراخ أمها وأخواتها.. جلست على قبرها فتبلى ثرى القبر بدمعي ناديت أسيل ها أنا عدت أين أنت؟ اشتقت إليك.. تذكرتها حين ودعتني وهي تمسح دموعها وضعت بين يدي مصحفًا صغيرًا قالت لي:
- حافظ عليه واقرأه سيحفظك الله به.

نظرت إلى عينيها كانتا شديدي الاحمرار منتفختان، وذلك السواد الذي خيم تحت عينيها الناعستين، فأدركت أنها كانت تبكي طوال الليل لم تنم لففتها بذراعي وأحرقت دموعها صدري. همست إليها:

- سأعود لن أغيب طويلًا من أجلك يا وردتي، ستهون غربتي.

على رصيف هذا الوطن تبعثرنا، تلاشت تلك الأيادي التي ظنناها ستللمنا، غرباء نحن في وطننا.. لعلنا نجد في الغربة وطنًا.

حدقت بي مليًا، تشبثت بي ثم قالت:

- حافظ على نفسك فأنت لي الحياة، لا أريد حياة دونك..
ليتها عاشت حياتها دوني كلما اشتقت إليها رأيتها. بجوار قبرها دفنت قلبي يا صديقي.. أحتفظت بكراسة كانت تكتب

فيها ولي نصيب من سطورها.. وبقطعة قماش لها كانت دائما
تضعها على رأسها حينما أكون في البيت عند أخواتي وتكون
هي معنا.. أحتفظت بها فاطمة في دولابها فأخذتها منها..
حاولت فاطمة أن تأخذها مني وأوهمتني أنها لها، لكن أسيل
كانت تضعها على رأسها دائما حينما رأت تعلقي بها تركتها
لي وهي تبكي لما رأت من حالي.. أنام وغطاؤها على وجهي
وبين ذراعي، مازالت رائحتها عالقة به.. أسمع صوتها وأفتح
عيني وأراها مبتسمة.. تهمس إلي:

- لم تركتني..

فانتفض من مكاني وأصرخ بأعلى صوتي

- ها أنا عدت.. أين أنت؟

لم يستطع فهد أن يرى فريد على ذاك الحال.. تركه يبكي..
وقد أمال رأسه إلى ركبتيه واحتضنه بذراعيه لعل البكاء يريحه..
وتجرف أدمعه ذلك الحزن الجاثم على أنفاسه.

(٣)

عاشق حائر

جلس فهد على صخرة شارد الذهن، وأمواج البحر ترتطم بالصخر حوله، ويهتز قلبه لهديرها كلما علا واشتد، فينتبه من شروده يتأمل تسابقها إلى تلك الصخور وارتطامها بها، ألا أنها صامدة تغفو على رمال الشاطئ.. أبحر بأفكاره بعيداً.. تأمل النوارس التي تحلق وتصف أجنتها.. فتغيب في كبد السماء ثم تعود وتغوص في البحر وتلتقم السمك فتخرج منتصرة من تلك المعركة الضارية.. أنتبه فهد على صوت فريد يحدثه وقد تورمت عيناه:

- اعذرني يا صديقي كدرت خاطرك. لم أبح لأحد.. سجننت ذلك البوح لأنني كنت أدرك أنني سأبكي ولا أريد أن يرى أحدٌ دموعي.

هكذا تعلمنا يا صديقي، أن الرجال لا يبكون.. فالبكاء للنساء فقط، لكنهم أخطأوا في ذلك.. صحيح أن دموعهم شحيحة لكنها تتساقط، كتساقط حبات المطر من غيمة متعبة مثقلة بالمزن. تبسم فهد وهو يضع يده على كتف فريد:

- أنت أخي يا فريد، يكفي أنك كتمت ما بك دون أن تبوح لي به، وخبأت عني همك وحزنك.. أنا حزين أنني لم أكن بجانبك لأخفف عنك ما ألمَّ بك..

- لا عليك يا أخي، أنت الصديق الوفي الذي مازال معي لم تغيره الحياة على الرغم من إنقطاعي عنك سنيًا. شعرت

أنني ألقيت كل مابداخلي هنا ووجدت من يسمعني. يكفي
ما تحدثت به عن نفسي حدثني عنك عن دراستك عن
حياتك عن كل شيء.

- الحمد لله، كما ترى أدرس في كلية الإدارة في مدينة
الشعب، تخصصت "إدارة أعمال" والحمد لله تسير الأمور
على ما يرام وأطمح أن أكمل دراستي خارج الوطن.
فريد وقد غمزه بإحدى عينيه:

- وأخبار قلبك يا صديقي؟

تبسم فهد ابتسامة زاوية وقال:

- قلب صديقك عميق كهذا البحر يخفي في أعماقه أسراراً..
صديقك كهذه القلعة الشامخة الصامدة أمام السنين..

- بُح يا صديقي كلي أذان صاغية.

- لكل منّا قصة يعيش أحداثها، هو بطلها، وهو من يرويها
منذ البداية، لكن نهايتها حتمية ليس له أن يتحكم فيها
وتظل تلك الحكاية مفتوحة القفلة.. قصتي أنني عاشق
حائر.. أحببت فتاة سرق طيفها لذيد نومي وسامرني
السهد ترعرعت وكبرت في حنايا قلبي واتخذت من قلبي
لها مسكناً.

- لا أصدق.. فهد عاشق!؟

- صدق يا صديقي بل أسير الحب، وضعت قيوده في
معصمي وقدمي.

- وهي هل تستحق قلب صديقي الرقيق؟

- إنها قمر يمشي على الأرضاية في الجمال، أن تحدثت
فلحديثها همسٌ عذب، وإن تبسمت ففي ابتسامتها نهر
حنان لا ينضب.. ناعسة الطرف.. غيداء.. هيفاء القوام..
حسناء مكتملة الأوصاف.

- لم أعرفك شاعرا.
- ليتني شاعر لأكتب فيها أجمل القصائد.
- فريد: هل تحبك؟
- فهد: هذا ما يؤرقني.. صامتة.. خجول.. أقرأ في عينيها البنيتين الواسعتين بوحاً صامتاً.. يجذبني من تلايبي.. فأتيه في دهاليزه أسترق النظر إليها حين أكون أمامها.. كأني شهاب في مجرتها.. بين الفينة والفينة ترميني بعيداً عنها.. أينما كانت أكون بقربها.. أرقبها أينما ذهبت.. تشرق شمس يومي حين أراها.. تارة أراها شاردة تتألمني وحين ألمحها تعرض بطرفها عني.
- أهي من أقاربك؟؟
- لا هي ابنة جارنا.. رجل شهم وكريم.
- هل عائلتها غنية؟
- لا ليست من طبقة الأغنياء، هم من الطبقة المتوسطة.
- أتعرف؟ البسطاء قد لا يملكون المال ليرفعهم، لكن يملكون العزة والكرامة التي ترفعهم عالياً، وأظن محبوبتك يا فهد من هؤلاء.. يدوسون أي شيء يمس كرامتهم وكبرياءهم.. حتى وإن كانت مشاعرهم.
- أتعني أن ثريا ترى الفرق الذي بيني وبينها من الناحية الاجتماعية؟
- أكيد.. قد ترى أنها غير مناسبة لك ولعائلتك وأنت تعرف أن أباك حسام أكبر تجار المدينة.
- لكن أنا لم أشعر يوماً أنني أفضل منها بل أتودد إليها وأتقرب منها..
- قد تكون خائفة من مشاعرها.. فهناك نوع من النساء لا تعترف بما تكنه من شعور بسهولة، لا سيما تلك التي ترى

- أن هناك فروقًا قد تعصف بذلك الحب.. وقد تنتظر أن
يبادر الطرف الآخر بالاعتراف.. الاهتمام يا صديقي هو
عبق الحب فلا حب بلا اهتمام.
- هي رفيقة أختي هند تزورها دائما تمكث معها تدرسان
وتتبادلان الأسرار، علاقتها بهند قوية جدًا.
- علاقتها بها تختلف عن علاقتها بك، فأنت شيء آخر.
- أردف فهد:
- أُمي تلمح لي كثيرًا إلى ابنة خالتي سهى.. وكلما زارتنا
ثريا، تأتي سهى كذلك.. أسلم عليهما أحيانًا، وأجلس
معهما أحيانًا أخرى، لكن سهى تتقرب مني وكأنها تلاحظ
اهتمامي بثريا.. فيزعجني تصرفها فأنصرف.
- إذا أنت تريدها أن تتقرب منك وأن تبدي حبها لك وأنت
تعيش هذا الصراع!
- أكاد أجن.. لم أفهمها. على الرغم من جنوني بها إلا أن
شيئًا ما في أعماقي يهمس إلي أنها ليست لي.. أراها نجمة
بعيدة المنال.. كلما تراءى لي أنني صرت قريبًا منها،
ابتعدت أكثر. ربما لها حكاية لم تكتمل.. فالكثير من
الهواجس تعتريني مامصدها؟ لا أدري!
- فريد وهو ينظر إليه مشدوها:
- حكاية؟ أية حكاية؟
- فهد وهو يمسك رأسه بكلتا يديه:
- لا أدري؟ شعور يختلج أعماقي.. كلما أنصت له يحدثنيان
تلك الفتاة التي تعلق بها قلبي ليست لي.. أنا أجزم أنها لي
وسأصنع المستحيل من أجلها.
- دعك من هواجسك، واتبع قلبك، هي ليلاك وأنت قيسها.
- (فريد وهو يضحك)

- في الفترة الأخيرة لاحظت أن أحدهم يتقرب منها.. عند عودتي من الجامعة، ذهبت لأخذ أختي هندا من كليتها، لكن لمحته وهو يمشي إلى جانب ثريا ويتبادلان الحديث لم أرها تتحدث إلى أحد من قبلو هذا الذي أغاظني.
- من هو؟
- مجاهد.. طالب يدرس في الكلية ذاتها، أختي هند وهو في نفس التخصص.. متميز.. ذكي.. جذاب.. هو ابن العم جميل صاحب الخضار.
- ربما تحبه فالشاب مميز جداً.
- فهد وقد اغتاظ:
- سأقتله..
- ضحك فريد:
- هدى من روعك يا صديقي.. أتغار عليها؟
- أغار عليها من كأس يقترب من شفيتها.. من قلمها التي تحتضنه أناملها..
- الله.. يا صديقي لقد تربعت الفتاة على عرش قلبك..
- أسمعني! اذهب إليها واعترف لها بحبك.. صدقتي سترتاح من هذا الصراع الذي تعيشه.. فإما أن تصدك وتريحك من الوهم الذي يعشعش في قلبك.. وإما أن تبادلك المشاعر.. وحينها تهديها النجوم.
- فهد وهو يضع يده على كتف فريد:
- هي ثريا.. لا تحتاج إلى النجوم.
- حسنا سأعمل بنصيحتك يا صديقي.. ضحكا معاً.. وبدأت الشمس تنحدر نحو المغيب.. تودع الساحل الذي هدأت أمواجه بعد مد وجزر.. ترسل أشعتها الذهبية.. لترسم لوحة الغروب الزاهية.

تعانقا ثمَّ وقفا يتأملان سحر تلك اللحظة.. ووعدا البحر والشمس
والغروب.. أن يكون لهما لقاء قريب ليكملا حكايتيهما.

(٤)

اعتراف

تلك الابتسامة التي انبثقت من ثغرها كالنور أضاءت أعماقه المظلمة ومهدت له الطريق ليبوح لها بحبه.. وعلى الرغم من أنه حائر بين شك ويقين.. يأس وأمل.. إقدام وتراجع.. لكن فهذا عزم على الاعتراف لها بحبه.. قبل ذلك فكر كثيرًا في كلام صديقه فريد وتردد كثيرا أيضًا.. بسبب الفارق الاجتماعي بينهما لكنه في النهاية اتخذ قراره بعد ليلة مضنية أمضاها ساهرًا يقلب الأمر على كل وجوهه ويحاول أن يتخيل رد فعلها عندما يصارحها بمشاعره..

في الصباح الباكر أزاح فهد الستائر البنفسجية لغرفته الستائر التي اختار لونها؛ لأنه المفضل عند ثريا رغم اعتراض والدته واتهامها له بأن ذوقه ليس راقياً.. لكنه كان يرى الستائر وكأنها عالم الأحلام الذي يحلق فيه مع ثريا ويعيش فيه أحلى اللحظات.. فتح نافذته لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، لكنه استيقظ باكراً هو لم ينم أصلاً سوى لحظات غلبه فيها النوم بسبب تعبته وأرقه وتفكيره المتواصل بما عزم أن يقوم به صباحاً.. وقف أمام النافذة تنفس هواء الفجر بعمق فعبق الورد يعانق الندى.. ونسائم الصباح تراقص الأغصان.. تقع غرفة فهد في الطابق العلوي من المنزل منفصلة عن باقي أجزاء البيت مما يتيح له عالمًا من السحر والخصوصية ملأها بتفاصيل صغيرة تذكره بثريا كل ركن من غرفته تضيئه زهرة أو تزينه لوحة تحمل في ثناياها رمزاً

لثريا.. صور مجرات وأقمار وشموس.. كانت غرفته تشبه قبة سماوية تضيئها ثرياه بكل ألقتها وسحرها.. أعتاد كل يوم أن يستيقظ في هذا الوقت.. حين تفتح ثريا نافذتها في هذا الوقت نفسه كل صباح.. تطعم عصافيرها التي تنتظرها خلف النافذة منذ أن كانت صغيرة تضع الحبوب والماء على حافة النافذة والعصافير اعتادت على ذلك المكان فتحضر قبل شروق الشمس ترقرق خلف النافذة فيكون لها مع ثريا لقاء حميم إذ تبسط يديها لتطعمهم، لكن ثريا لم تدرك أن هناك عينين تنتظرانها كل صباح كما العصافير تراقبونها بشغف وتلهف وشوق.. وكذلك لم تدرك أنها كانت تعني لصاحب هاتين العينين تحية الصباح وشمس يومه.. طموحه وحلمه.. أمله ومناه وفضاء حياته.. لم تكن تعرف أنه يظل يحوم كصقر محلق في سمائها الصافية، لكنه يهابها ويخشى الاقتراب منها.. لكيلا تهرب منه كما تفعل العصافير حين تشعر بخطر ما.. وأي خطر يمكن أن يحمله قلبه؟! لا شيء سوى هذا الحب النقي؟! هبت نسمة هواء حركت ستائر النافذة جفلت العصافير وطاربت بعيداً فأغلقت ثريا نافذتها بعد أن اطمئنت إلى أن العصافير تناولت فطورها.. وكذلك أغلق فهد نافذته بعد توارى ثرياه عن نافذتها.. نزل فهد من غرفته.. قبل رأس أمه.

- صباح الخير جنتي. (قال فهد)
- صباحك سعادة يا قرة عيني. (ردت أمه)
- ألن تذهب هند لكليتها هذا اليوم؟!
- قالت أنها متعبة.
- صباح الورد. (قال أبو فهد)
- قبل فهد رأس أبيه:
- صباحك سعادة أبي

أمسك فهد بيده كأس الحليب، وأخذ بعض الفطائر.. أفرط على عجل..

- على مهلك.. لم العجلة دائماً تأكل وأنت في عجلة من أمرك. (قالت أم فهد)

- تأخرت والطريق سيكون مزدحماً.. لا تنساني من دعواتكما.

خرج فهد بسيارته إلى كليته.. يحدث نفسه:

- هند لم تذهب إلى الكلية سيكون الوقت كافياً للقاء ثريا.. لا بد أن أحدثها.. لابد أن أكون قوياً وجريئاً.

حضر فهد المحاضرة وبعد ذلك وجد وقتاً مناسباً ليغادر جامعته ويذهب إلى ثريا.. وعندما وصل كلية ثريا.. ركن سيارته في مكان مخصص للسيارات ثم دخل.. هو يعرف الكلية جيداً، فقد جاء إليها أكثر من مرة كان يصطحب هنداً وغالباً ما كانت ثريا ترفض أن ترافقهما حرجاً وخجلاً منه.. وقف فهد بالقرب من قاعة ثريا ينتظر خروجها.. بدأ الطلاب بالخروج.. وحين خرجت ثريا رأى فهد مجاهداً يسرع في خطواته.. ثم يقف أمامها وأخذاً يتحدثان ويضحكان.. وقف فهد مغتاضاً واضعاً يديه في جيبه وهو ينظر إليهما.. فقد الأمل فيما جاء يقوم به وذهبت أفكار ليلته الفاتنة أدراج الرياح.. تبعثرت أفكاره وخنقته عبرة كاد يطلقها لكنه تنفس زفيراً حارقاً.. سقطت عبارات البوح في غياهب الصمت لمحته ثريا، فاستعجلت جاءت إليه تمشي واثقة الخطوة تحتضن دفتر المحاضرات بين ذراعيها تغطي رأسها بحجاب مطرز بني اللون وتتأبط حقيبتها الجلدية ذات اللون البني أيضاً وترتدي حذاء بلون بني أنيق، وعباءة سوداء فضفاضة همس فهد في سره:

- كم أنت أنيقة وتشعين كجوهرة...!!!

همست بود:

- مرحبا فهد.
- رفع رأسه.. فوقعت عيناه في عينيها.. تبسمت بخجل..
- أبتسم ابتسامة باهتة وهز رأسه ثم رد بنبرة هادئة:
- تعرفين، يناسبك كثيرا.. يليق بك وتليقين بهشاب وسيم
- مميز متفوق.. له مكانته وسمعته
- من؟ (قالت ثريا)
- ذاك الذي كنت تقفين معه.
- أتقصد مجاهداً؟!
- هز رأسه بياس وعتاب:
- نعم
- ردت ثريا بثقة:
- أنا أقدره واحترمه كثيرا.. فهو يساعدني فيما احتاجه من
- مراجع وما يصعب علي في دراستي.
- وماذا أيضاً؟
- هذا كل شيء
- من يراكما تمشيان معاً وتتحدثان وتقفان هكذا يفسر الامر
- بأكثر من ذلك. خصوصاً مع أناقتك اللافتة.. هل تهتمين
- بمظهرك لتعجبيه؟
- لم تحضر هند فلا اظنك جئت لتصطحبها! لماذا حضرت
- إذًا؟!
- لم تحببي عن سؤالي؟ ثريا.. تكلمي.. أراك تلعبين
- بمشاعري أقرب منك فتبتعدين أبعد فأراك قريبة تارة
- أقول أنك تكنين لي حباً مثلما أكن لك وتارة أرى مجاهداً
- أقرب إليك مني.
- ماذا تريد مني؟
- اصدقيني القول؛ هل تحبين مجاهداً؟

- وبمَ يعينيك إن كنت أحبه أو لا؟
- أو تسألين هذا السؤال وتسألينه لي أنا؟
ثريا مبتسمة:
- أتغار منه؟!
رد فهد غاضباً:
- سأقتله.
- ضحكت ثريا ضحكة هائلة ثم اقتربت من فهد بدلال وجلست بالقرب منه تنتظر سماع بقية حديثه مطرقة بخجل لذيد..
- ثريا أنا أحبك.. (قال فهد)
- احمرّت وجنتاها كرمانتين أشاحت بوجهها عنه خجلة وطيف ابتسامة يلوح على فمها وشفتها السفلى ترتعش توترًا..
- وقف فهد هائجاً مشدود الأعصاب متوفرّاً كأنه حمل فوق حمله أثقالاً كالجبال أضاع أبجديته أمامها.. عجز عن وصف شعوره الدفين الذي يداريه منذ سنين.. علقت العبارات في جوفه.. أستجمع قواه ثم قال:
- أتعرفين أنني لا أنام حتى تسدلين ستارة النافذة وتطفئين الأضواء وأبقى ساهراً أحرص أحلامك لعل نصيبا ينالني منها ملامحك لا تغيب عني.. صوتك.. عفويتك..
- ابتسامتك التي أغمض عليها عيني وتصحبني في غفوتي.. ألم تسألني عن باقة الورد التي وجدتها قرب سريرك يوم مرضك وتلك الرسالة الموجودة فيها ألم تتساءلي عن الصورة التي وجدتها في حقيبتك والعلبة التي تحوي خاتم الكرستال والسلسلة التي كتب عليها اسمك.. لم تعذبين من يداري هواك؟! لم هذا الجفاء والجدود؟! أيسقى الحب بماء التجاهل؟
- ردت ثريا بصوت هادئ:

- قلبي يسكنه شخص واحد فقط.. أعتلى عرش قلبي وبنى
صرح الوجد فيه خبأت حبه في حنايا الروح.. هو السماء
التي تظهر الثريا فيها.
- جلس فهد وشبك أصابعه، وأمال برأسه إلى الأسفل:
- لقد صدق حدسي.. هو ذاك المعتوه.. هو القريب منك
رأيت ذلك بعيني.
- الذي رأيته اعترف لي بمشاعره.. صارحني بما يكنه لي..
هنف فهد وحبات العرق تتصبب من جبينه:
- وأنتِ لِمَ لم تصارحيه؟!
ثريا وهي تهمس بوجل:
- صارحته.. صارحته أن قلبي ليس ملكي قلت له أن قلبي
ملك لغيره.
- أحقًا قلبك لا يملكه هو؟
نظرت إليه ثريا.. حلق فهد بكلتا عينيه منتظرًا ردًا يبرد
النار التي تستعر في قلبه وفي لحظة مسروقة من الزمن ومقتطفة
من حدائق الوجد التقت عيناها وتعانقت تلك النظرات طويلاً هبت
نسائم الغيم وفاح عبق الورد من حولهما.
- أنت يا فهد من قصدته.. أنت..
فهد وقد ابلجت أسارير وجهه:
- من؟ من قلت؟ لم أسمع
ثريا بصوت خجول:
- أنت.. من خبأتك في شغاف القلب بوحًا صامت.
- قفز فهد عاليًا وصرخ بأعلى صوته:
- أخيرًا.. أخيرًا سمعتها منك...
- أخذ ملأ كفيه أوراق الأشجار المتساقطة ونثرها في السماء.

ثريا وهي تبتسم: اهدأ، يا فهد الكل ينظر إليك.. سأذهب إن لم تهدأ...

فهد والدموع تلمع في عينيه:

- هل أضحك؟ أم أبكي؟ أريد أن أحدثهم أنني أحبك اليوم ولدت يا ثريا.. ولدت من جديد.. أتذكرين ذلك اليوم الممطر حين كنت عائدة من المدرسة.. نظرت من الشرفة فرأيتك من بعيد وأنت تركضين نزلت بسرعة وأخذت مظلة وركضت نحوكِ كنتِ قد تبللتِ وحقيبتكِ بين يديكِ ناولتكِ المظلة وحملت الحقيبة عنكِ. قلت: "وأنت سوف تبلل". قلت لك: "لا يهم أنت ستمرضين إن تبللت بالمطر". ومشيت معكِ حتى وصلت.. يومها مرضتِ أنتِ من البرد ومرضت أنا ولها بك.. ضحكت ثريا:

- أعرف.. أتذكر يوم وقعت وجرحت ساقك وسالت الدماء كنت أبكي وكنت أنت تضحك كتبت اسمي على جذع الشجرة بدمك وكنت كلما مررت بها ابتسمت وارتعش قلبي وتذكرت خوفي وحبي لك.. كانت تتحدث وأسارير وجهه تطفح فرحاً وسرورا وفجأة صمتت.. وتلاشت تلك الفرحة وأسدت الكآبة ستائرهما على ملامحها..

- ثريا ما بك.. مالي أرى غيمة الكآبة تمطر من وجهك الحبيب

- تحدثت كثيرا وأبديت لك مشاعري ونسيتنا أن هناك الكثير من المصاعب التي سوف تواجهنا ولن نقوى على الصمود بوجهها.

- عن أية مصاعب تتحدثين؟! لقد وجدتك وخبأتك بقلبي ولن تستطيع أية مصاعب ان تقف أمام حبي لك.
- أنا كما ترى من عائلة مستورة الحال وأنت ابن حسام الذي إن ذكر ذكر الترف والغنى..

رد فهد بغضب:

- ما هذا الكلام؟ تتحدثين عني كأنك لا تعرفيني..
- أنا لا اقصدك أنت.
- تقصدين من؟
- أمك يا فهد لا تهتم بأمثالنا فنحن بالنسبة لها فقراء كثيرًا ما أرى اهتمامها ببنت خالتك سهى وقد أخبرتني عنها هند أنها تريد لها لك وأنت لم ترد لها جوابا.
- ثريا.. أُمي والدها اغترب في بريطانيا، وبعد موت والده حصل على ثروة طائلة فأصبح من الأغنياء وحين تزوجت والدي كان من عائلة متوسطة، بذل قصارى جهده لكي لا تشعر بالفرق بينه وبين عائلتها وعمل واجتهد حتى صار قريبا منهم وأصبح في مستواهم بل وأفضل منهم.. صحيح.. حدثتني أُمي عن سهى لكن في كل مرة أقول لها ليس الآن على الرغم من إلحاحها.. سهى تهتم بي وتريد الارتباط بي لكنني لا أريد ذلك.. أنا أريدك أنت فقط.. لا أريد من الدنيا سواك.. لقد اكتفيت بك أنت.. فلا أرى في الدنيا أحداً غيرك أنت عالمي الذي أجد سعادتي فيه.. لا أشعر بالحياة إلا بقربك، ولا معنى لأي شيء إلا معك.. أنت كل المعنى وكل الوجود..

ردت ثريا بصوت حزين:

- فهد تريث.. فكر.. ربما ترفض أمك ارتباطك بي ماذا سيكون موقفك؟ ماذا سأفعل أنا؟!!

- لا أحد سوف يقف أمامي ويعارض اختياري.. حتى وإن رفضت سأرفض طلبها.. لا أظن أنها ستقف أمام سعادتي.
- وإن وقفت؟!!
- لو تقف الدنيا بأكملها سأكون لك، وتكونين لي ماحييت أعدك.. ألا إذ خطفني الموت.
- ذرفت ثريا دموعها:
- لا تقل مثل هذا الكلام.. وأنا أعدك انني لك ماحييت سأنتظرك مادمت على وعدك وعهدك..
- تساقطت أوراق الخريف وعزفت سمفونية الحب الدافئ الذي بدأ يستقبل ربيعہ لتتفتح أزهاره ووروده.. تغني أطيّاره وترقص فراشاتہ فالحب ثقة وانسجام.. وفاء وعطاء.. عهود لا تحنث.. ووعود لا تخلف ومواريث لا تصل إليها يد الخيانة مهما طال زمن الفراق..

الفصل الثالث

(١)

درع أمير الشعراء

دلف صالح إلى غرفة ابنه عمر، فقد تأجج قلبه شوقاً إليه، تأمل كتبه المرتبة على المنضدة وأوسمة التقدير وبعض الكتب المصفوفة على رفوف مكتبته.. ورفع بصره نحو شهادة الحرف الذهبي وهي تتصدر جدران الغرفة، ثم جلس إلى مكتبه يقلب بين مذكراته ويقرأ: "أحلامنا تسرق لذيق نومنا، فرافقنا السهد ليالياً طويلة.. الأحلام قد لا تتحقق مادام من يريدها لا يعشق القمم.. قد تتعالى أحلامك فلا تبتئس قف على أطراف أصابعك وأمسها لتصبح واقعاً جميلاً". أطلق زفرته الممزوجة بالحنين ثم أكمل: "خلف منعطفات الانتظار.. أمنيات طال غيابها.. ننتظرها يرهقنا الانتظار كثيراً.. فنتكئ على جدران الأمل.. لعلها تسرع في خطواتها قليلاً.. كسراب هي كلما تراءت لنا ابتعدت أكثر.. عطشنا دون أن نرتشف من ينابيعها شربة فرحة.. متى ستخط خطاها على طريق الانتظار لتصل إلينا؛ فنحن مازلنا في انتظارها"

أغلق صالح مذكرات ابنه، ثم أطلق زفرة حارة أغرقت أهدابه بالدمع.. فتمتم بشفتين جافتين:

"لا تحسب المجد تمرّاً أنت آكله

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا"

- أه.. صار قريباً يا بني.

خرج وأغلق باب الغرفة، بعد أن رفع يديه داعياً:

- يارب حقق له ما يصبو إليه.
عمر في سفر خارج الوطن.. ليمثل دولته في مسابقة دولية للفوز بدرع أمير الشعراء.. تلك هي الأمنية التي سرقت لذيد نومه.. وأحالت ليااليه جحيما يتلظى فوق ناره.. وهاهو اليوم يعود ليسطع نجمه لامعا على مستوى بلده.. ذاع صيته في كثير من منتديات الشعر والكتابة، هو يكتب بشاعرية مرهفة، ولغة جزلة، متمكن من أسرار الكلم.. كيف لا وهو حفيد معجزة الشعر اليمني "عبدالله البردوني".

لقد أشرف عمر على كثير من الأمسيات الشعرية، يمتلك صوتًا عذبًا كصوت محمود درويش عند إلقائه الشعر وهو متأثر به كثيرًا ومحب لشعره، ومن عشاقه. من خلال التلفاز كان صالح ينصت إلى شعر ابنه عمر، وتذرف عيناه دمعًا حينما يسمع ثناء لجنة التحكيم على شعره.. كان في الصدارة.. حين يقف ويصدح بصوته الرخيم، فتشرئب الأعناق إليه إعجابًا وتقديرًا.. ورغم أنه قصير القامة، لكنه كان وسميًا؛ عريض المنكبين، جميل الابتسامة، أسمر البشرة، كث الشعر، أمرد، ذو عينين لوزيتين تنتسعان وتبرقان عندما يطلق العنان للسانه ويغرف من بحور شعره.

في صباح ذلك اليوم، أشرقت الشمس على صوت صياح حفيد صالح، فقد رزق ابنه البكر أحمد بمولود.. أنه أول حفيد.. لم تسعه الدنيا فرحًا، وهو يحمله بين يديه فمذ وقت طويل لم يحمل طفلًا بين يديه. كانت ثريا تتأمل ملامح وجه أبيها فلم تره سعيدًا كمثل ذلك اليوم.. أخذت تمازحه:

- أيشبهني يا أبي؟! لا بد أنه يشبهني فأنا عمته..
حقق بها، وشرد بذهنه، عادت به الذاكرة إلى ذلك اليوم الذي حملها بين يديه. فتمتم بينه وبين نفسه:

- لا يشبهك.. وهل يوجد شبيه للقمر
كادت دموعه تسقط والعبرة قد ألجمته. ناولها إياه وهي
حائرة مشدوهة:
- ماسر حزنه فجأة.. مابال تلك الدموع التي لمعت في
عينيه؟
قبلها على رأسها ثم قال:
- لا أحد يشبهك، أنت "نور الدار".
تبسمت.. أم أحمد تنادي من المطبخ:
- حفيدك يا صالح، يشبهك.
صالح وهو يضحك:
- لا أنا أجمل منه، انظري إلى حفيدك إنه أسمر.
ضحك الجميع. كان ذلك اليوم مميزا عند الجميع.. في
الصباح ملأ الفرح البيت، وفي المساء تعالت الزغاريد فقد فاز
عمر " بدرع أمير الشعراء". كانت الفرحة فرحتين، بكى صالح من
شدة الفرح، فقد أصبح عمر قريباً من حلمه.. وزَّع صالح
الحلويات استبشاراً بعمر الصغير، واحتفالاً بعمر الكبير.. وبعد
أسابيع.. عاد عمر وقد لامست يده سقف حلمه، أقيم له حفل عائلي
فرحاً وابتهاجاً، فقد تصدر اسمه الصحف، وطلبت بعض القنوات
استضافته.. لمع اسمه.. سلطت الأضواء عليه.. وصار عضواً
ذهيباً لرابطة شعراء اليمن. تفرغ لتحضير دراسته العليا، فقد
تخصص في الأدب واللغة. واهتم بالشعر وكل ما يتعلق به كان
صالح فخوراً بابنه عمر، فهو من حقق له حلمه الدفين.

(٢)

في العيادة

رقد محمد في المستشفى بعد أن ارتفعت به الحمى واحتاج لنقل دم، محمد هو الابن الأصغر لصالح كان منذ صغره يعاني من تكسرات الدم (الثلاسيميا) وزادت معاناته مع المرض حين كبر.. محمد نحيل الجسم، أبيض البشرة، شارب على الخامسة والعشرين من عمره ومازال يعاني ويلات وآلام المرض، كانت برفقته ثريا ووالدهما، أقبل أحدهم فسلم على صالح:

- كيف حالك، يا عم صالح.
- نظر إليه صالح نظرات استغراب ودهشة ثم رد:
- الحمد لله
- ألم تعرفني يا عم.
- أنا "سامر"

عندها احتضنه صالح وأخذ يمسح على كتفيه أعذرنى يا بني يبدو أنني كبرت كانت ثريا تنتظر إليهما مشدوهة:

- من هذا الشخص الذي يسلم عليه أبي بهذه الحفاوة؟
- كان ذلك الشخص، شاباً طويل القامة، أبيض البشرة ذا عينين كحليتين وحاجبين مقوسين، أسود الشعر كث... كث اللحية جماله ينبع من ابتسامته.. أنيق مهندهم.. أقبل نحوهما.. فحص سامر محمد، وسأله عن حاله، واطمأن صالح أنه بخير..
- ثريا هذا الطبيب سامر ابني العزيز طال غيابه، وظننت أنني لن أراه. (قال صالح)

- تشرفت بمعرفتك. (قالت ثريا)
 - أهلا وسهلاً. (رد سامر)
 - صالح:
 - أين اختفيت منذ سنين. (قال صالح)
 - سافرت خارج البلد لأكمل دراستي.. تخصصت طب أطفال، والحمد لله عدت قبل عام، اشتريت عمارة في مدينة المنصورة أقطنها أنا ووالدتي.. وأعمل في عيادة خاصة بي.
 - قاطعه صالح:
 - وعملك ألم تعد المياه إلى مجاريها.
 - طأطأ سامر برأسه:
 - الجشع يا عم أعمى بصيرته.
 - نظر سامر إلى ثريا وهي تسحب الدم من يد محمد وتضعه في علبة خاصة لتذهب بها للمختبر.
 - هل تجيد ممارسة التمريض؟
 - نعم.. تخرجت من كلية الطب، تخصصت تمريض منذ شهور، لكنها لم تجد مكانا مناسباً تمارس فيه مهنتها. (رد صالح)
 - ما رأيك أن تعمل معي في العيادة أنا أبحث عن ممرضة، رد صالح مبتسماً:
 - الرأي لها.. لكن لا أريدها أن تعمل مساءً المكان بعيد.
 - في الصباح إن أردت.
 - أجابت ثريا:
 - لا مانع عندي، أتشرف بالعمل معك أيها الطبيب
 - سامر: على بركة الله، هذا عنوان العيادة، وإن أردت من
- الغد

أنا هنا أشرف على بعض الأطفال الذين أخضعتهم لمراقبة مكثفة، وأتابع حالاتهم المرضية بين الفينة والفينة. ودع سامر صالحاً بعد أن تعانقا. ثريا:

- من أين تعرفه يا أبي، مظهره يدل على أنه غني لكنه متواضع ولبق في كلامه. رد صالح بزفرة حزن:

- أعرف عمه، وبعد المشاكل التي حدثت بينهما، كان سامر يأتيني يشكو سوء تصرفات عمه، وقفت معه ضد عمه فقد كان هو صاحب الحق. وبعد ما حدث ما لم يتوقع، اختفى سامر ولم أعلم عنه شيئاً إلى أن رأيته الآن. ثريا وقد اتسعت حدقتا عينيها:

- ماذا حدث يا أبي؟! أردف صالح بعد تنهيدة من أعماقه:
- قصة طويلة يا ثريا تدمي القلب.. ألوقت غير مناسب لسردها.

عم الصمت.. وفي المساء غادر محمد المشفى إلى البيت. في أول يوم من مزاولتها للعمل.. لبست معطفها الأبيض ولفت حجابها حول رأسها وعنقها، كان من قماش أسود لمعت كنجمة الصبح التي تتلألأ مع بزوغ الفجر.. كزهرة قل متفتحة تعانق بتلاتها قطرات الندى. وصلت العيادة.. مدخل العيادة نظيف.. مقاعد الانتظار فضية اللون يزين جدرانها طلاء وردي، بعض الصور معلقة على الحائط.. لوحة على المدخل مكتوب عليها بخط جميل.. "وإذا مرضت فهو يشفين" صور طبيعية تبعث في النفس الراحة.. صور الأطفال ووجوههم مبتسمة.. رائحة المعقم تفوح من أرضية العيادة، فالخالة سعيدة المسؤولة عن

أعمال التنظيف تقوم بتعقيمها وتلميعها يوميًا، ولعدة مرات.. وتتقاضى راتبًا شهريًا لقاء عملها، فهي أم لأربع أطفال أيتام تحتاج لإعالتهم.. والخالة سعيدة تكن الحب للطبيب سامر فهو يحسن معاملتها وتقديرها. بدأت ثريا تدخل المرضى على الطبيب تداعب الأطفال وتساند أمهاتهم تصغي لمن يسأل وتلك الابتسامة لا تقارق محياها. جاء وقت انصرافها فطرقت الباب على الطبيب:

- دكتور هل تستطيع الانصراف الآن؟

وقف الطبيب من مكانه.. نعم، ثريا تستطيعين. كان عمك اليوم رائعاً رأيت المرضى مسرورين، كانت الممرضة التي قبلك لا تمتلك أسلوباً يليق بالمرضى وطالما شكى منها المرضى ومن قسوتها فاستغثت عن خدمتها على الرغم أنني في أمس الحاجة لممرضة، والحمد لله أنني وجدتك، وجدت من تجيد التعامل مع المرضى برقي ورفق.

رافق الطبيب ثريا إلى مخرج العيادة وكان يحدثها والابتسامة تملأ وجهه

أقبلت هدى، فسلمت على الطبيب سامر

- هدى أعرفك على صديقتك الممرضة "فراشة العيادة"

ثريا يليق بها هذا اللقب.

هدى، وهي تحق بها:

- أهلاً ثريا.

- أهلاً بك هدى. (قالت هدى)

تبسمت ثريا وودعتهما وانصرفت

لم يصرف الطبيب سامر نظره عنها حتى غابت

دكتور متى ستذهب للمنزل تأخر الوقت وسوف تتأخر عن المرضى مساءً. (قالت هدى)

لم ينتبه سامر لما تقول..

- دكتور.. هل أنت معي؟!

- ها نعم، نعم معك!

انصرف سامر واغتاظت هدى من شرود ذهنه.. هدى تخصصت في المختبرات، تتميز بذكاء عال تقترب من سامر وتهتم به كثيراً لكنه لم يأبه لذلك الاهتمام ويتهرب منه. هذه هي المرة الأولى التي تراه يحدق بفتاة منذ دخلت العيادة همست في نفسها:

- إنها ساحرة الجمال.. لقد ضعت ياهدى!

طلبت هدى من سامر أن تعمل معه كذلك في الصباح فهي لا تستطيع العمل مساءً.. وافق سامر على طلبها.. بدأت هدى تقترب من ثريا، وتكسب ودها لتكسب ود سامر على الرغم من بغضها لها.

- ثريا تعالي أريدك. (قال سامر)

دخلت ثريا وأغلقت الباب غرفة الطبيب صغيرة لكنها جميلة.. شهادة تقديره معلقة على الحائط.. مجسم مراحل نمو الطفل.. ستائر زهرية اللون، سرير ناصع البياض خاص بالمرضى أضواء هادئة، وتكييف أمامه على المنضدة، بعض الملفات.. أوراق مرتبة.. مزهرية ورد.. علبة حلوى، كلما دخل طفل أهده قطعة.. خرجت ثريا وكان بين يديها دواء للصغير أمجد الذي أمر الطبيب بإخضاعه للمراقبة في أحد المستشفيات مدة أسبوعين ثم عاد به والده إلى العيادة لأخذ الدواء المجاني، والده لا يملكان ثمن الدواء فالكثير من المرضى يأخذون الدواء مجاناً إضافة إلى الفحص المجاني.. كانت ثريا تحب تلك الصفة في الطبيب سامر وتحدث والدها عنه وعن حب المرضى الفقراء لهيوماً بعد يوم تعلقت ثريا بالعيادة، وأحبت العمل فيها.. في الصباح تحمل في جيوبها بعض الحلوى للصغار الذين يرتادون

العيادة يحدث لها معهم قصة كل يوم حتى أصبح المرضى لا يعرفون في عيادة الأمل إلا الممرضة ثريا.. اغتازت هدى فبعض أهالي المرضى يتجاوزونها، ويذهبون إلى ثريا لمسكون بيدها لتشرف على أبنائهم، وتعنتي بهم.. بدأت الغيرة والكراهة يحرقان قلب هدى.. واغتازت أكثر حينما مرضت ثريا وتغيبت عن العيادة لمدة يومين فغابت ابتسامة الطبيب سامر كأنه فقد شيئاً ثميناً.. في ذلك الصباح الذي عادت فيه ثريا إلى العيادة حمل بين يديه باقة ورد وأهداها إياها.. اختلقت هدى قصة وأخذت تحدث ثريا عنها.. وفهمت ثريا أن هدى تحب الطبيب سامر وتخاف من اهتمامه وتقربه لغيرها فما كان منها إلا أن حدثتها عن حبها لفهد وتعلقها به فطارت هدى فرحاً وأصبحت صديقة لها.. لاحظ سامر اهتمام هدى بثريا لكنه لم يعرف ما حدث.

(٣)

حفلة

طرفت هند الباب، ففتحت لها أم أحمد.. قبلتها على رأسها:

- كيف أنت ياخالة
- أين ثريا؟
- عادت متأخرة من العيادة وهي الآن نائمة ادخلي إليها.
- حسناً.
- طرقت باب غرفتها.
- نهضت ثريا:
- ادخل
- دخلت هند معاتبة:
- لمَ لم تخبريني أنك تعملين في العيادة؟
- ردت ثريا مندهشة:
- من أخبرك؟
- هند غمزت لها بإحدى عينيها:
- ومن غير حبيب القلب.
- ثريا بصوت خجول:
- تقصدين فهد!
- هند ساخرة:
- لا أنا!
- لم أخبر أحدا ولم أرَ فهداً منذ أيام. فكيف عرف؟
- هند مبتسمة:

- قلبه دليله.. هو منزعج من عملك في العيادة.. سامر "صاحب العيادة" صديقه..
- ثريا غاضبة:
- ماذا في الأمر؟
- لا أدري.. ربما الغيرة!
- دعيك منه، أخبريني.. ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟
- اتصلت بك، هاتفك مغلق، فأتيت إليك بنفسي.
- أريدك غدا في البيت..
- ماذا هناك؟
- سأقيم حفلة متواضعة، ستحضر خالتي، وبناتها وصديقاتي، وجميع الأهل.
- ثريا وقد اتسعت احداقها:
- ما المناسبة؟
- هند بصوت مشحونا بعتاب:
- أنسييت أن غدا عيد ميلادي، العيادة سلبت عقلك
- ردت ثريا بنبرة هادئة:
- العمل مرهق نسيت حتى نفسي.
- ردت هند غاضبة:
- أخاف أن تنسيني أنا أيضاً!
- لا تخافي.. هل مثلك ينسى؟ تعرفين لا أحب حفلات الميلاد.. هكذا عودني أبي، لكن من أجلك، يا رفيقة
- الدرب سأتي.
- ردت هند بفرح:
- سأنتظرك غداً عصرًا.. فأنت أعز صديقاتي.
- حسناً سأحاول..

- غضبت هند، وخرجت.. ركضت خلفها ثريا أمسكتها بيدها،
وهي تضحك
- أمزح، يا هند لا تغضبي سأتي إليك ولو حبواً.
تبسمت هند وودعتها.
- قطعت هند كيكتها التي زخرفت بحروف اسمها.
وأطفأت شمعها الثالثة والعشرين، صفق الجميع.. كانت هند
ترتدي ثوباً بنفسجي اللون "مصنوع من قماش الشيفون ومزين
بالترتر" وكان قصيراً متناسقاً تماماً مع تفاصيل جسدها وشعرها
المنسدل على كتفيها زاداها جمالا وجاذبية مع بشرتها الحنطية
وعينيها العسليتين الناعستين اللتين تخفيان في حنايها الكثير من
الصمت.
- قمر أنت، يا هند ذوقك في انتقاء الفساتين راق جداً. (قالت
سهى)
- شكراً حبيبتي سهى. (ردت هند)
ثريا مبتسمة:
- كل عام وأنت صديقتي.
تعانقا طويلاً حتى كادت الدموع تفصح عن طول ذلك
العناق. همست أم سهى لحبيبة:
- من هذه التي تعانق هند؟
- ثريا صديقتها، وجارتنا. (قالت حبيبة)
- ما شاء الله! (قالت أم سهى) تبارك الخالق آية في الجمال!
انظري لفستانها الذهبي، ذي الأكمام الطويلة المصنوعة
من "الدانتيل" كأنها أميرة. انظري لشعرها الحريري
المنساب إلى خصرها.. وخصرها النحيل حواء العينين،
وابتسامتها التي تزين خدها بغمازة تزيدها سحرا،

- وجمالا.. يا الله! تبدو قمرًا يتلألأ في كبد السماء ليلة
تمامه.
- حبيبة مزجرة:
- أراكِ معجبة بها.
 - ما بكِ؟
 - نسيت أنني حدثتكِ عنها.. أن فهد مهتم وأشعر أنه وقع في
حبها.
 - ما المانع من ذلك، وهي بهذا الجمال، والدلال مادام يحبها
اخطيئها له.
- ردت حبيبة بغضب:
- متى تفهمين أقول لك لا أريدها.. لا تناسب فهدًا. ولا تليق
به.
- أريد سهى لفهد، لأنها تحب فهد.. متى تفهميني؟
- ردت أم سهى بنبرة حزينة:
- حبيبة لا تظلمي ابنتي.. مادام ابنك يحب غيرها..
 - هو يحب سهى، وسيتزوجها مهما كلف الأمر.. وسترين..
- كانت سهى تراقب ثريا، والغيرة تحرق أحشاءها فقد ارتدت
أجمل ما عندها (فستانها الأحمر القصير المصنوع من الشيفون
الفاخر) مفتوح الصدر، بدت فيه بكامل أناقتها، وشعرها الأشقر
القصير الذي يحاذي شحمة أذنيها تزينه بطوق من الكرسنال
ووجها مستدير ممثلي، وبشرتها البيضاء، وعيناها الكحيلتان تبرق
منهما الغيرة، والحسد لثريا التي لم تغب عن طرفها.. وقفت سهى
بالقرب من حبيبة، تتهامسان اقتربت سهى من ثريا وهد متسائلة..
- سهى وهي تلعب بخصلة من شعرها:
- هند متى يعود فهد إلى البيت؟
 - في منتصف الليل.

سهى وهي تعدل السوار المرصع بالكرستال غالي الثمن
في معصمها:
- إدا سأنام هنا لكي انتظره..
اقتربت حبيبة من سهى:
- سترينه حبيبتي ستكونين معه عن قريب.. سيصبح
خطيبك..
سهى وهي تنتظر لثريا بنصف طرف:
- اخجلتيني ياخالة..
حدقت هند بثريا، تلاشت تلك الفرحة التي كانت تزين
ملامحها، وعلقت بين أهدابها دموع حبست، عبرة تكاد تخنقها،
أسدلت على ذلك الشعور شبه ابتسامة أمسكت يد هند بقوة..
فشدت هند على يدها.. همست إليها هند:
- ثريا فهد يحبك لا تخافي كوني قوية
خرجت وعيناها تمطران دمعاً سخيئاً رافقتها هند إلى بوابة
الفيلا لم تستطع النظر في عينيها فجأة فتح الباب وإذا بفهد واقف
أمامهما أغلق الباب كانت يده خلف ظهره وابتسامته تملأ
وجهه حدقت ثريا به كثيراً وتناثرت دموعها أمامهم تستطع أن
تخفي دموعها على الرغم من تماسكها تلاشت فجأة ابتسامته،
وأسدل يديه كان يحمل طوقان من الياسمين.. فهد بصوت حنون:
- ثريا ما بك؟
ردت ثريا وهي تكفكف دموعها:
- لا شيء
هي دموع الفرح برؤيتك، وبعيد ميلاد هند؛ همس فهد في
نفسه:
- أعرف دموع الفرح لا توهميني فدموعك هذه تركت
أثرها على وجنتيك..

- تأملها وطرफها المبلل بالدمع كاد يغرقه حزناً وكما أقترب
منها ووضع الطوق على رأسه انظر إليها وقال في نفسه:
- اشريقي وأضيئي غياهب أعماقي.. أطفئي لهيب الشوق
بغيت طرفك.. إيلام من وقع في حب نجمة.. أن بات يكابد
السهر ليحظى بوميض منها..
 - أحم أحم! نحن هنا.. (قالت هند) اليوم عيد ميلادي أنا،
وليس عيد الحب! أين هديتي؟
وضع الطوق الآخر على رأس هند.. واحتضنها..
 - لم أنس هديتك، ولست وحدك
ردت هند بغضب:
 - أهذه هديتي فقط!
 - ألا تكفي؟! هل أجمل من طوق الياسمين؟! (قال فهد)
 - لا.. ليست هدية بالنسبة لي.
- ضحك فهد، وهو يسترق النظر إلى ثريا يريد أن يحظى
ولو بنصف ابتسامة اخرج من جيبه علبة..
- وهذه هديتك، يا أجمل هند.
 - فتحت هند العلبة، وأخرجت منها سلسلة من ذهب مكتوب
عليه اسمها.
- هند وقد انبلجت أسارير وجهها:
- الله ما أروعها! احبك يا أغلى أخ.. أخرج علبة أخرى،
وأمسكها بكلتا يديه وقدمها إلى "ثريا" خجلت ثريا
امتنعت عن أخذها.. نظر فهد إلى هند وأشار لها برأسه
فأخذت العلبة وقدمتها إلى "ثريا"
- هند مبتسمة:
- افتحها لأرى تبدو أجمل من هديتي.

فتحتها ثريا كانت عبارة عن "سوار من ذهب" أمسكته هند
ووضعت في معصم ثريا.. تلاً كنجوم في معصمها.. تأمله فهد
ثمّ تمتم:

- لم أره ذهباً، إلا حين وضع في معصمك.
- هند وهي تمسك بيد ثريا:
- يا لجماله إنه رائع!
- شكرت ثريا فهد وانصرفت على عجل أمسك فهد هند بمنكبيها
- هند ما القصة؟
- ردت هند:
- أي قصة؟؟
- قصة دموعها.. لا تتظاهري بالغباء.. رأيتها حزينة لم أرَ
الحزن في عينيها من قبل من ضايقها من تحدث معها
أخبريني.
- قصت هند لفهد ما حدث.. فاحمر وجهه واغتاظ وترك هنداً
وخرج.. كانت سهى خلف النافذة تراقبهم
حينما عادت هند سألتها:
- لماذا لم يدخل فهد؟ ماذا كان يفعل معكم؟ بماذا كان يحدث
ثريا؟؟
- غضبت هند وزجرتها.. سهى صارخة:
- أنا أعرف أنك تحبين ثريا أكثر مني لذلك لا أستطيع أن
أنام هذه الليلة معكِ كنت أود أن أراه لكن تلك الأفعى تحول
بيني وبينه نزلت حبيبة من الطابق العلوي، ورأت سهى
قد فتحت الباب تريد المغادرة.
- سألتها فلم ترد عليها، وأغلقت الباب وذهبت غضبت حبيبة،
ونادت هنداً.
- نعم، يا أمي.

- لم ذهبت ابنة خالتك؟
 - أرادت أن تحدث فهدًا، لكنه ذهب فغضبت منه.
 - أين هو الآن؟
 - لا أدري.
- جلست حبيبة في الصالة تنتظر فهد على أحر من الجمر..

(٤)

حقيقة أم خدعة

عاد فهد متأخرًا فتح الباب واضعاً يديه في جيبه وهمّ بصعود الدرج لم ينتبه لأمه "كانت تجلس على الأريكة البيضاء وضعت إحدى رجليها على الأخرى" عندما رآته قالت بحزم:
- فهد تعال إلى هنا.

تسمر فهد في مكانه فقد كان متضايقًا ولا يريد أن يسمع أحداً.. جر خطاه نحو أمه وقف أمامها وهو مطرق رأسه حبيبة بصوت هادئ:

- تعال يا حبيبي واجلس جوارى.
- قبل فهد رأس أمه.. فهد بصوت يكاد لا يسمع:
- خير يا أماه.. ماذا هناك؟
- حبيبة وهي تضع يدها على كتفه:
- كل خير يا قلب أمك.. كانت سهى هنا.. غادرت قبل قليل.. كانت تريد أن تراك هي شغوفة بك، يا فهد.
- أسند ظهره على الأريكة، ونفت زفرة يملؤها الضجر:
- أماه، كم مرة أحدثك أني لا أفكر بأحد لا سهى، ولا غيرها حبيبة بنبرة غاضبة:
- أنت لا تريد سهى، أنا أعرف أنك تحب ثريا، قرأت ذلك في عينيك صمت فهد وهمس في نفسه:

- آه.. لا غرو أن تقرئي حبها في أحداق عيني.. هناك بين الأجفان خبأت حبها.. ما يفضح العاشق غير حبيبته التي يظل طيفها يلاحقه أينما حطت خطاه.
- أردفت حبيبة بغضب:
- تحدث.. هل نسيت أنك ابن المهندس حسام؟ لا تليق بك إلا سهى بنت المهندس ماجد.. تريد ثريا ابنة صالح صاحب المتجر.
- اعتدل فهد في جلسته رد بصوت حزين:
- أماه أرجوك افهميني.. نعم؛ أنا أحبها، ليس من اليوم منذ أن كنا صغارا، هي فقط من ملكت قلبي لا يهمني بنت من كانت، أعرفها أكثر من نفسي.
- قاطعت أمه بصوت حاد ملاً أرجاء الفيلا:
- كنت أعرف أنها سلبت عقلك، ماذا أقول لخالتك وابنتها وأنا قد منعت الخطاب عنها لأنها لك
- دلف أبو فهد من الباب وقف مشدوها بين ذلك الصراخ والهمهمة:
- ماذا يحدث؟
- حبيبة وهي تضرب بكفيها على فخذيها:
- تعال يا حسام واسمع ابنك يريد أن يتزوج ابنة صالح
- أردف أبو فهد بصوت هادئ:
- دعيه يختار ما يناسبه.. سعادته فيما اختار.
- تهلل وجه فهد وانبلجت أساريره واقترب من والده وقبل رأسه فهد، والابتسامة تترنج على شفتيه:
- حدثها يا أبي أن سعادتي ستكون مع ثريا هذه حياتي، أنا المسؤول عنها جن جنون حبيبة..
- ردت بنبرة ممزوجة باحتقار:

- سعادتك مع سهى بنت الحسب والنسب ليست مع لقيطة وجدت على باب مسجد.
- أبو فهد وهو يعرض على شفتيه:
- حبيبة ألزمني حدك، ما هذا الكلام؟
- ردت وقد علا وجهها تباشير الانتصار:
- لم لا تحدثه عنها لم تخبئ عنه.. طفح الكيل يا حسام، ماكنت أخشاه وقع.. قص له قصتها.. لم يعد هنالك شيء يستحق الكتمان.
- لم يسمع فهد إلا كلمة لقيطة كانت بالنسبة له كلمة تحتاج لمعجم لكي يعرف معانيها لعلها تحمل أكثر من معنى ربما هي كلمة تطلق على من يغار من جمالها أو ربما هي كلمة لذوي الطبقة الدنيا.. لا؛ لا أظنها تقصد القبيلة التي تنحدر منها أو المدينة التي ينتمي إليها والدها الفقير جالت تلك العبارات والمسميات في فكر فهد وتشتت أفكاره. فهد وقد جحظ عينيه:
- لقيطة... لقيطة! لم أفهم
- ردت حبيبة بعد أن أسندت ظهرها على وسادة من الريش مبتسمة:
- اسأل والدك
- تشبث فهد بأبيه.. فهد بصوت متهدج:
- أباي اصدقني القول هل صحيح ماسمعت؟! صمت أبو فهد، وأطرق رأسه.. كان فهد كطفل يتشبث بتياب والده وعيناه تلمعان بانكسار وذل.
- لم أفهم شيئاً.. لقيطة.. ومن ثريا؟! أرجوك قل أي شيء لكن لا تقل لقيطة.. قل إنها يتيمة.. قل لي أفهمني ما معنى لقيطة؟
- وبعد إلحاح فهد أجاب والده بصوت مشحون بالحزن:

- نعم صحيح، ثريا ليست ابنة صالح هي لقيطة تبناها صالح
وجدتها يوماً من الأيام بجوار مسجد الحي كانت تلك
الكلمات كالصاعقة خطفت مسامع فهد وهند..
طار سمع هند، وضعت يديها على خديها وعلت وجهها
علامات الاستفهام.
- كيف؟ متى؟ وأين؟

تهادى فهد في خطواته وأراد أن يصعد الدرج زاغ بصره..
علته غشاوة فجلس ووضع رأسه على ذراعيه يداه ترتعشان،
تنفس بصعوبة في اللحظة غرق في لجج الخضم فماجت به
وهاجت وطمغت.. لم يعد يسمع حتى نبضات قلبه تلاشت
نبضاته.. تجمدت الدموع في أهداب عينيه.. تاه بين أزقة
الكلام، وضجيج تلك العبارات لم يسمع إلا صوت زفيره،
وشهيقه البطيء.. أراد أن يصرخ لم يستطع فكيف لغريق أن
يسمع صوته واليم يقذفه إلى أعماقه.. ارتدى على سرير هكأن
أطرافه متجمدة دون حراك.. وحيداً هو في معركة ضارية..
خاضها بكل قوة لكن سهماً ما غرز في خاصرته فنزف..
وسقط سلاحه من يده ذلك السلاح هو الحب الذي عشعش في
أعماقه فقد قطع عهداً، ووعداً لثريا أنه سيحارب الدنيا من
أجلها لا شيء سيقف أمامه لكن كيف سيحارب، والجرح
عميق وينزف بغزارة كيف لنا أن نحافظ على عهدٍ
قطعناه ووعودٍ التزمنا بها وهناك أشياء تحول بيننا وبين
الوفاء بها أكبر من قدراتنا.. سنكون في نظر من أحببنا
عاجزين.. خائنين.. حائثين.. لم نحمل أنفسنا مالا نطبق
ونرهق كاهلنا بما لا نستطيع لِمَ نجزم دائماً أننا نستطيع أن

نضحني ونقاوم ونبذل ولا نأخذ بعين الاعتبار أن ثمة لحظة قد
تخور فيها قوانا؟

طرقت مسامعه في تلك اللحظة عبارتها التي كتبتها له آخر
مرة حين سألها عن حبها له قائلة: "أحببتني بقلبك فأحببتك بكل
جوارحي". أه يا ثريا.. ماذا أفعل.. كيف لي أن أراك دون أن
أبكي.. دون أن أخبرك أنني قد هزمت وهزيمتي أنت والجرح
والحب أنت كيف لي أن أحدثك أن قلبي قد ضاع مني كيف لي أن
أخبرك أنني استسلمت أنني خذلتك.. كيف لي أن أنظر في عينيك
ولا أقول عبارتي التي تخجلك دائماً: "عيناك مجرتي وأنا التائه
فيها". أين أخبئ حنيني ولهفتي وشوقي ووجدني لك.. أين؟ وأنا
رفعت رايتي البيضاء.. لم أعد أرغب في شيء.. فقدت الإحساس
والمشاعر كيف؟ ولماذا؟ لم؟ لا أدري! اهذه هي الأيام التي كنت
أراهن عليها أنها ستكون أجمل أيامي.. هاهي قد سرقت مني أغلى
ما أملك.. وها أنا أصبحت جسداً دون قلب! هل هذا كله حلم؟ أهو
حقيقة أم مجرد خدعة، لأبتعد عنك؟ أمسك رأسه بكلتا يديه
والعرق يتصبب من جبينه.. لم ينم فهد تلك الليلة حتى صدح
صوت الأذان.. ولجت هند غرفتها أغلقت الباب واجتاحتها.. نوبة
بكاء شديدة.. احتضنت وسادتها الناعمة ذات اللون القرمزي..
فبللتها بدموعها.. لم تبك ثريا لأنها لقيطة كانت تبكي فهد الذي
رأته كطفلٍ وحيدٍ شريدٍ، يحدق في المارة لعل أحدهم يمسك بيده
ويعيده إلى حضن أمه.. نامت بعد تلك الليلة الكئيبة.. كانت تتمم
بصوت بالكاد يسمع: "أنا أحلم.. نعم أحلم.. سأستيقظ في الصباح
غداً.. وأحمد الله أنه حلم"

دلف شعاع الصباح عبر النافذة.. وداعب خصلات شعرها
فتحت عينيها، شعرت بصداع في رأسها أمسكت رأسها بكلتا يديها
رفعت، وسادتها لتسند رأسها عليها.. لمحت ظرفاً تحت المخدة

تناولته كان فيه ورقة مفتوحة وظرف مغلق.. انتفضت من مكانها
فتحت الورقة ويدها ترتعشان: "هند حبيبتي اعتني بوالديك جيداً..
أعذريني لم أستطع أن أودعك ولا أن أودعهم.. لم أقوَ على ذلك..
أنا مسافر.. لا أدري إلى أين لكنني سأسافر ولا أدري أين
وجهتي.. أوصلي رسالتي لثريا.. السلام عليكم"
نزلت الدرج بسرعة وصراخها يسبقها.. خرج أبو فهد من
غرفته:

- هند ما بك؟ ماذا حدث؟
- هند بصوت متقطع:
- فهد.. فهد..
- وخنقتها العبرة دون أن تفصح عن الكلام تسالت تلك الكلمات
إلى مسامع حبيبة انتفضت من فراشها وهي تصرخ:
- ولدي ولدي ماذا به؟
- هند والدموع تسح على خديها:
- فهد غادر البلاد يا أمي ترك لكما البيت وغادر.
- جثت حبيبة على ركبتيها وهي تبكي وتضرب بذراعيها
على فخذيها:
- يتركنا من أجل لقطة.. ليتني مت ولم أعش إلى هذا اليوم.
- جلس أبو فهد على الأريكة قبالة حبيبة طوفان الدموع في
عينيه يفيض حاول عبثاً أن يرده:
- سامحك الله يا حبيبة قلت لك دعيه يعيش حياته لكنك عنيدة
وكلامك لا بد أن ينفذ، أنا أنية لا تحبين إلا نفسك أفشيت
سراً لطالما تعاهدنا ألا يعرفه أحد انكشف السر، وخسرنا
ولدنا.
- زعت في وجهه:

- أترضى له أن يتزوجها وهي لقيطة أتريد أن يأتيك أحفاد
ليس لهم نسب يتفاخرون به
يترك سهى ذات النسب التي يتمناها الجميع
رد أبو فهد بنبرة حادة سمع لها صدى:
- اصمتي يكفي كلاماً.. دعينا نفكر في حل ليعود فهد إلينا.
أردفت حبيبة بنبرة حازمة:
- فهد عنيد إذا أراد شيئاً لا يتنازل عنه أبداً.. وأنا لن أقبل
بما يريد مهما فعل.
هند وهي تكفكف دموعها:
- أماه ارفقي بفهد وثرى أنت لا تعرفين تعلقهما ببعض. لم
تحمليها خطأ لم تقترفه؟ مادام أنه سر ليبقى سراً.
ردت حبيبة بغضب:
- أنتِ السبب في قربه وحبه لها.. كان باستطاعتكِ أن تعلقيه
بسهى بكلامكِ عنها بحبك لها.
ردت هند بصوت هادئ وحزين:
- أماه، لم لا تفهمين أن سهى أنانية مغرورة، لا تحب إلا
نفسها شتان بينها وبين ثرى.. الفرق شاسع يا أمي.. وهل
يبلغ الثرى الثرى؟!
حبيبة وهي مغتاظة:
- اغربي عن وجهي لا أريد أن أراك.. لا أحد يسمع كلامي
تعبت منكم.

الفصل الرابع

(١)

رسالة

تحيّنت هند الفرصة لتوصل الرسالة لثريا لكنها لم تجد الوقت المناسب.. مر أسبوع على سفر فهدلم تفتح نافذته التي اعتادت ثريا أن يطل كل صباح منها ليطمئن عليها وتتسلل نسمات حبه لها وتعانق شغاف قلبها.. لم ترَ سيارته.. اتصلت بهاتفه فإذا هو مغلق انتابها القلق، حاولت الاتصال بهند مرة، مرتين، وثلاث يظهر عند هند في شاشة الهاتف "ثريتي يتصل بك" تنظر هند لهاتفها لكنها لم تستطع أن تفتحه وترد عليها تأوهت: "أدري أنك قلقة على فهد.. أه يا ثريتي.. ماذا تخبئ لك الأيام.. ماذا أقول لك وبأي العبارات أخبرك.. ماذا سأحدثك.. سأكتّم عنك كل ماسمعت لكن كيف؟ وأنت تقرّين بوحى في عيوني لا أستطع أن أخبئ عنك شيئاً.. أبوح لك بكل أسرار يهل أستطيع أن أخبرك أن فهداً غادر ولا أدري إلى أين؟ ماذا سأقول لك بأي عبارة سأؤجز لك كلما حدث ليبتني أستطيع أن أفعل أي شيء لأبعد به هذا الحزن والهم الذي يزحف نحوك لا أجيد الكلام لست لهذه المواقف بأهل".

أغلقت هند هاتفها ووضعت رأسها على ذراعيها حائرة لا تدري ماذا تفعل لكنها عزمّت على الذهاب إلى ثريا لتوصل لها الرسالة فقط دون الدخول في التفاصيل وصلت هند بيت ثريا، وكما هي عادت سلمت على أم أحمد فرحبت بها وهللت.. دلفت هند إلى غرفة ثريا كان الوقت قبيل المغرب فرحت ثريا بهند، وعانقتها.

- فقلت عليكِ اتصلت بكِ فلم ترددي. (قالت ثريا)
- كنت متعبة. (ردت هند)
- ثريا وهي تحقق بهند:
- ملامحك تتحدث بصمت.. أفصحي ماذا هناك؟ أين فهد؟! مضى أسبوع لم أره.. لا رسالة ولا اتصال.
- صمتت هند ولم تجب
- في عينيك ذبول لا أدري ما سببه.
- انفجرت هند باكياً.. فزاد قلق ثريا وزادت مخاوفها ثريا بنبرة قلقة:
- أرجوكِ اهدئي وحدثيني عن سبب بكائكِ.
- هند بصوت متهدج:
- فهد يا ثريا...
- قاطعتها ثريا، وقد اتسعت أحداق عينيها:
- ما به.. أهو مريض؟
- تسارعت نبضات قلبها، وضاق نفسها هند، والدموع تنهمر على وجنتيها:
- ليته مريض.. فهد سافر وتركنا.
- ثريا مفزوعة:
- سافر!! الى أين؟ ولماذا؟ لم يتحدث عن السفر قط؟ هند
- أرجوكِ أفصحي يكاد رأسي ينفجر.
- أخرجت هند الظرف من جيبها ووضعت في يد ثريا.. ثريا مشدوهة:
- ما هذا؟
- هند وهي تكفكف دموعها:
- رسالة من فهد.. اقرئيها ربما تفهمين كل شيء.

جلست ثريا وبدأت تفتح ظرف الرسالة.. يداها ترتعشان، لا تسمع إلا ضربات قلبها.. فتحت الرسالة وقرأت: "أمسكت القلم لأكتب حروفي هذه فسقط القلم من بين أناملي حاولت مرة، ومرتين، وثلاثاً.. وحين أردت الكتابة أضعت حروف أبجديتي.. وصرت عاجزاً حتى عن كتابة عبارة واحدة.. ربما لأنها حروفي الأخيرة.. حروف وداع.. شيعت حباً عجزت أن أحافظ عليه قلت لك ذات مرة: لن تستطيع الدنيا أن تقف أمامي ولا شيء سوف يبعدني عنك.. أنا لا أؤمن بالفراق بين العاشقين.. لا أؤمن بالخدلان.. ولا الظروف التي تكون مبرراً بأن تقلت أيدي المتحابين.. خبئت في شغاف القلب واليوم ذلك الشغاف مُزق فأين أخبئك.. كنت لمباهج مقلتي نوراً.. اليوم انطفأت تلك المباهج.. تائه لست أدري أين الطريق.. وأي درب سوف أسلك.. تركت كل شيء ما عدت أرغب بحياة لا تشاركيني فيها.. كنت أظن أنني أقوى من كل شيء.. أقوى من الظروف.. من الصعاب.. كنت أظن أنني فارس مقدام قد اعتلى صهوة الهوى وجال في ميادينه وها أنا ذا قد ترجلت من على صهوته وانكسر ظهري.. لست جبائلاً.. ولا خائناً.. لكنّ سهماً أطلق وأصاب خاصرتي فأرديت.. فأنا الجريح التائه الأسير المهزوم.. الهارب إلى اللامكان وإلى اللا شيء.. ستقرئين حروفي وأثق أنك لن تفهميها الآن.. ستفهميها فيما بعد حين تجدين نفسك تائهة مثلي وتبحثين عن نفسك فلا تجدينها.. كوني قوية.. فأنا خذلتك.. لأن الخدلان أنت سببه.. وليس لك ذنب فيه... والسلام ختام".

سقطت الورقة من بين يديها أمسكت برأسها جمعت أنفاسها جثت أمام هند:

- أرجوكِ قلّلي لي ماذا يقصد فهد بكلامه هذا؟ لم أفهم شيئاً؟ شئتُ حروفه ذهني.. يتحدث عن الخذلان وأنا سببه.. كيف ذلك؟! تعاهدنا على الصدق فاصدقيني القول. غطت هند وجهها بكلتا يديها وهي تبكي:
- أرجوكِ ثريا ارحميني.. منذ أسبوع لم أذُق طعم الراحة والسهد رفيقي كل ليلة.. فهد غادر لأنه لم يستطع أن يحافظ على حبك.. أمي لا تريدك.. نعم، يا ثريا لا تريدك، وأنت تعرفين ذلك..
- ثريا وقد جلست بجوار هند:
- لا أظن ذلك سبباً يجعله يغادر.. قال لي أنه لن يمنعه عني أحد مهما حدث.. قال لي أن حياته معي ودوني لا يريد حياة.. في رسالته نبذة حادة لم أعدها من قبل استفهامات كثيرة لم أجد لها جواباً أقسم لك يا هند إن لم تخبريني ماذا تخيئين عني لن تري وجهي بعد اليوم أبداً
- طأطأت هند برأسها وبعد برهة ردت:
- حسناً سأخبرك.. ثريا هل أنت ابنة العم صالح؟
- نعم.. وهل يوجد لي أب آخر؟!
- أمي تقول غير ذلك
- ثريا وقد اتسعت عيناها ورفعت حاجبيها وهي تنتظر لهند:
- ماذا تقول أملك يا هند؟
- هند بصوت حزين:
- لا أدري ربما حيلة أرادت أمي أن تفعلها لكي تفرق بينك، وبين فهد ولكن والدي أكد الأمر.
- ثريا بصوت مخنوق:
- حيلة ماذا؟ وما الأمر الذي أكدته والدك؟
- هند وهي تحبس عبرتها: أنك... أنك..

- ثريا وهي تمسك بكتفي هند وتهزها أنني ماذا؟
هند بصوت متقطع:
- أنك لقيطة!!!
ردت ثريا بصوت حاد:
- لقيطة!!!... من؟... أنا!! بماذا تهزين يا هند؟
وقفت ثريا، وهي تمسك برأسها وصرخت رأسي رأسي
ثم سقطت على الأرض..
هند وهي ترتجف:
- ثريا.. ثريا انهضي أرجوك.
صرخت هند..
- ياخالة أدركيني ثريا أغمي عليها.
ركضت أم أحمد:
- ثريا افتحي عينيك.
وأخذت تصب الماء على وجهها.. كان صالح في غرفته
انتفض وهو يسمع صوت أم أحمد ظنَّ أنَّ محمداً قد وقع له شيء
وحين رأى ثريا مرمية على الأرض كاد يسقط عليها.. حُملت ثريا
إلى المشفى وأدخلت قسم العناية وقف صالح على باب العناية
وبعد ساعتين خرج الطبيب.
- أرجوك أيها الطبيب طمئني عنها. (قال صالح)
- أهى ابنتك! (قال الطبيب)
- نعم..
- الفتاة تعرضت لصدمة عصبية ادعُ لها أن تنجو منها
بسلام
- كانت فاجعة لصالح أصابه الدوار ولفَّ المكان به:
- صدمة عصبية! من ماذا؟! ماذا حدث؟! ماذا سمعت حتى
تحدث لها هذه الصدمة؟!

جاء عمر وأحمد لرؤيتها فأخبرهم صالح أنها في حالة حرجة اسند صالح ظهره على أحد جدران المشفى واقترش الأرض غارقا في بحر من التساؤلات:

- صدمة عصبية!! كيف ذلك؟ ماذا يحدث؟ لم تغادر المنزل، وعادت من العيادة، والابتسامة تملأ وجهها.
تذكر صالح في تلك اللحظة هند، وتذكر صراخها وكيف كانت تيكي.. غادر صالح المشفى وذهب إلى بيت هند طرق الباب بقوة، كان الوقت متأخراً.. خرج أبو فهد حينما رأى صالح وقف مشدوها:

- أهلا جاري العزيز. خيراً ماذا هناك؟

كان صوته مشحونا بأسى لا يصدق:

- أين هند؟

- في غرفتها..

- أريدها..

أبو فهد بصوت يملؤه القلق:

- أفلقتني ماذا حدث؟

- أرجوك نادها وستفهم بعد ذلك..

ذهب أبو فهد على عجل وطرق باب غرفة هند التي لم تتم

قط

وحين أخبرها أن العم صالح يريد لها فرّعت، وهولت

مسرعة

جلس صالح في الحديقة خرجت هند، وأبوها إليه هند

بعينين ذابلتين ونبرة حزينة:

- طمئني يا عم عن ثريا أهي بخير؟

نظر صالح إلى هند بصمت؛ ثم قال بصوت هادئ:

- هند، ماذا حدث لثريا؟ ما سبب الصدمة العصبية التي تعرضت لها؟
- هند وهي ترتجف:
- الآن كيف هي؟
- صالح بصوت يملؤه الأسى:
- في حالة حرجة.. هناك شيء ما سمعته ثريا تسبب في انهيارها.. قلبي تكلمي يا أبنتي لا تخافي أريحيني.. يكاد عقلي يطير مني.
- هند وهي تعصر أناملها:
- أخبرتها أن فهدًا غادر.. فحصل لها ما حصل.
- صالح بنبرة حادة:
- وما علاقة ابنتي بفهد؟
- قاطعها أبو فهد:
- اسمع يا صالح ثريا، وفهد بينهما قصة حب منذ الطفولة حب عفيف وعلاقة لم تشبها رذيلة كلاهما كتوم، ومتحفظ عن الجميع ألحت حبيبة على فهد تريده أن يتزوج بسهى ابنة خالته فرفض وأخبرها عن حبه لثريا، فرفضتها فما كان من فهد إلا أن تركنا، وسافر.
- صالح، وهو يطلق زفرة حارة:
- آآه.. حافظت عليها لكنني لم أستطع أن أحافظ على قلبها فهي تملكه، ليتها حدثتني عن هذا الحب لأبعدها عنه فأنا أعني أنها لا تناسبه.
- يا عم هل صحيح أن ثريا ليست ابنتك؟!
- صالح وقد احمرَّ وجهه وتدفق الدم إلى وجنتيه:
- من قال هذا؟
- هند كفي عن هذا الكلام.

- هند وهي تشحج بصوتها:
- أريد أن ارتاح دعوني أخبر ثريا أن الكلام مجرد خدعة..
 - أنه خز عبات فقطدعوني أخبرها أنكم كذبتن من أجل أن يبتعد عنها فهد.
 - هند هل عرفت ثريا بهذا الكلام؟
 - قرأت رسالة فهد.. ثمّ توصلت إليّ وأقسمت عليّ فحدثتها.
 - أردف صالح بنبرة حادة:
 - حدثتها عن ماذا؟
 - بما سمعت.
- اتكأ صالح على إحدى يديه وهوى بثقل جسده على الكرسي الوثير.. غامت عيناه وسقط قلبه بين قدميه.. صدره يلهث ويطلق زفرات متتابعة.. ساد الصمت.. كومة من الدموع حبسها بين أحداقه وخنقته العبرة وجاء ذلك اليوم الذي أرّقه، وكان يظنُّ أنَّ سرها بين اثنين الله ثالثهما.. استدار صالح نحو أبي فهد:
- قل لي كيف عرفت حبيبة بهذا السر.. كيف؟!
- أبو فهد وقد طأطأ راسه:
- اسمعي يا صالح واسمع القصة: "في ذلك اليوم الذي وجدتُ فيه ثريا خرجت أول المصلين وعندما حاذيت بوابة المسجد لمحت شخصاً متخفياً كأنه يمشي على أطراف أصابعه، وحينما رأيته ركض فشدَّ انتباهي فتبعته وفي زاوية المسجد المحاذية للشارع وضع شيئاً ما وحينما رأيته قفز السور، وهرب فتحت الصندوق، وإذا بداخله طفل، فاقشعر بدني وارتجفت غطيته وخرجت أبحث عنه وطففت حول المسجد وذهبت إلى أقصى الشارع ركضت وتعبت استرحت وقد بدأ شفق الصباح يطلع تذكرت الطفل، فعدت مسرعاً سمعت صوت البكاء ومشيت نحو الطفل فرأيت أحدهم واقفاً أمامه فاخبتأت لم أرَ ملامحه لأنني كنت

خلفه فحمل الصندوق، وأنا اتبعه حتى وصل بيته وكنت أنت من حمل الصندوق عدت للمنزل متأخراً، فوجدت حبيبة واقفة عند الباب مغتاظة ظنت فيّ السوء فما كان مني إلا أن حكيت لها القصة وحينما عرفنا أنها بنت وأنت أخفيت سرها تعاهدنا أن نكتم السر"

صالح بصوت ممزوج بخيبة:

- ليتكم ماكنتموه.. ليتكم تحدثتم لأكون قد أدركت ما كنت أتوجس منه، وأظنه لن يحدث أبداً.. أنتم قتلتم ثريا يا أبا فهد.. تشاركتم في قتلها الحبيب والصديق ومن كانت تراهم أعز جيرانها..

أبو فهد، وقد أطرق رأسه إلى الأرض:

- أتوسل إليك لا تكثر من اللوم، فنحن قد خسرنا ولدنا الوحيد
- أضعتم ثريا فضاغ ولدكم. (رد صالح)

مشى صالح، فتح الباب ثم استدار قليلا وأطلق نظره الحاقدة وبنبرة مشحونة بتهديد:

- أقسم لك إن حدث لها مكروهاً لن أسامحكم ماحييت.

دخل صالح على أم أحمد وهو يحسب..

- طمئني كيف هي ثريا؟

- ضاعَت مئاما كنا نخشاه وقع.. وقع المحذور، يا أم أحمد

أم أحمد وهي تحديق به: لم أفهم عن ماذا تتحدث!!

رد صالح وهو يحاول جاهدا حبس عبرته:

- السر الذي كتمناه سنيئاً كشف اليوم.

أم أحمد مفزوعة:

- ماذا؟ لا أحد يعرفه إلا أنا وأنت كيف ذلك؟!!

قصّ صالح لأم أحمد قصة أبي فهد.. فانهمرت دموعها
كالمطر وضربت كفها بكفها الآخر:
- انطفأت شمعة الدار.

(٢)

من أنا؟

بعد يومين أخرجت ثريا من العناية إلى غرفة خاصة تحت إشراف الطبيب، وسمح بزيارة خفيفة.. تلهف صالح لرؤيتها، ودخل عليها كانت حالتها مستقرة.. اقترب منها وقبلها على جبينها، وأخذ يحق بها بذلك الوجه الشاحب وبتلك الأهداب المبللة بالدموع.. كانت ممددة على سرير رمادي اللون مغطاة إلى نصفها بقماش أبيض متم صالح:

- يا نور داري من الذي أطفأك؟ يا نجمتي هل سيبزغ ضوءك من جديد.. أضعف حينما تتعبين.. كيف أقوى على أن أراك ذابلة.. قد سرق الحزن بسمتك.. وأقام ماتم عزاء على ضفاف ثغرك.. كيف أحبس عبرتي إن رأيت عينيك تذرف الدموع.. ظننت أنني حافظت عليك.. ونسيت أنني حافظت على بعضك وبعضك أنت تملكينه.. خرج صالح، والدموع تسيح على خديه.. أخبره الطبيب أنها ستظل تحت العناية، فالصدمة قوية تحتاج لمراقبة دلف أحمد، وعمر، ومحمد لزيارتها جلس بالقرب منها محمد، وأمسك يدها.

- ثريا غرفتي لم أستطع ترتيبها.. والعسل الذي تقدمينه لي كل صباح قبل أن تذهبي إلى العيادة، وتلزميني أن أشربه من أجل صحتي، وتغضبين إن تكاسلت في شربه

لم أعد أشتهيه كل ليلة أشعر بكِ وأنتُ تتفقديني وتضعين
يدكِ على ناصيتي خوفاً أن تكون حرارتي مرتفعة
فينخفض دمي أغمض عيني، وحينما تخرجين أبتسم
وأدعو لكِ.. ثريا كوني قوية.. دائما ما تقولين لي:
"المرض ليس في الجسد المرض في أننا نقنع أنفسنا أنَّ
أجسادنا لا تستطيع أن تقاومه".
فتحت ثريا عينيها وكان همس محمد أيقظها.. رقصت
ابتسامة على شفتيه:

- ثريا فتحت عينيها لقد استيقظت.. الحمد لله أنكِ بخير.
جلس عمر، وأحمد بجوارها.
عمر مبتسما:
- الحمد لله على سلامتك.
أحمد وهو يضع يده على رأسها:
- سلامتك، ياغالية.
- حدّثت بهما بصوت يكاد لا يسمع:
- أين أنا؟

وهمت بالنهوض.. كانت تفرع مسامعها تلك الكلمة التي لم
تجد لها تفسيراً كلمة سحبت بساط الحياة من تحت قدميها
"القيطة" تذكرت رسالة فهد.. كلام هند.. كل ذلك الشريط مرَّ
أمامها في تلك اللحظة رمت بها تلك الكلمة إلى مكان مجهول
ودهاليز تاهت فيها.

- أنت في المشفى وستعودين للبيت قريباً. (قال أحمد) عمر
الصغير يفتقدكِ.
- ردت بنبرة ممزوجة بحشرة:
- أين أبي؟.. أريد أبي..
- دخل الطبيب.. الطبيب غاضباً:

- المريضة تحتاج للراحة اتركوها الآن.
- خرجوا وبقي الطبيب طرق صالح باب الغرفة حين علم أنها تريده.. أوصاه الطبيب أن لا يتحدث معها كثيراً لأن ذلك سيؤثر على صحتها.. دخل صالح بهدوء.. جلس صالح بالقرب منها.. كانت عيناها تتأمل سقف الغرفة.. وتلك المصابيح التي تضيء بخجل جدران الغرفة ذات لون رمادي، ستائر رمادية اللون، أجهزة تحيط بها.. لم تنتبه لوجوده صالح بصوت دافئ:
- ألف سلامة عليك، يا مهجة القلب.
- انتبهت ثريا ونظرت إليه كانت نظراتها مشحونة بعتب:
- كنت أظن أن جميعهم يكذبون؛ إلا أنت يا أبي. كنت أظن أن جميعهم مخادعون؛ إلا أنت يا أبي.. هل سأناديك بعد اليوم أبي أم العم صالح؟ هل أستطيع أن أضع رأسي على صدرك كما عودتني حين أبكي، أم أن ذلك الصدر لم يعد يصلح لي هل سيناديني الناس ابنة صالح أم ثريا فقط!
- رد صالح وهو يكابد عبرته:
- يكفي لا تقتليني، يا ابنتي.. أنا أبوك، وسأظل كذلك ماحييت.
- أردفت ثريا بصوت حزين:
- من أنا؟ أصبح أنني لقيطة؟! أرجوك اصدقني القول.
- أنت ابنتي التي وضعتها في أحداق عيني.. فرشت لها عمري لتمشي عليه.. أنا أبوك الذي سهر من أجل أن تنامي.. أنت أمانة حملتها وعاهدت الله أن احافظ عليها ما حييت.. أنت ذلك السر الذي كتمته سنين وكنت أظن أنه لن يعرفه أحد لكن شاء الله وحدث ماحدث..
- ردت ثريا ودموعها تنهمر:
- لقيطة أنا، وجددتني بالقرب من المسجد أليس كذلك؟

- اقترب صالح منها وأمسكها بيديها:
- ديكٍ من هذا الكلام الآن أعدكِ حينما تكونين بخير
سنتحدث..
قاطعته ثريا بنبرة متهدجة:
- أرجوك.. أرحني يكاد رأسي ينفجر
صمت صالح برهة؛ ثمَّ أجابها:
- نعم، لكنكِ ابنتي.. أم احمد أَرْضَعْتكِ وصرت أباك، أبوك
أنا الذي أنتِ أحدى عينيهِ.

جفت مدامعها، من يعيرها عينيْن تبكي بهما.. فلا تنضب
ينابيع الدموع، إلا حين تكف الحياة عن نبضها.. حين يصبح كل
شيء نعرفه يتكرر لنا، يبتعد عنا، يصنع حاجزا بيننا وبينه تأملته
بعينين يملؤها الأسى ثمَّ قالت بصوت مخدول: لماذا أخذتني؟ لمَ لم
ترمني للكلاب؟ لمَ جعلتني أعيش إلى هذه اللحظة؟ ليتني مت..
ليتني مت.. أسميتني ثريا.. والثرى كان أحق بي.. علا نحيبها
وتسارعت زفراتها.. فصارت تتنفس بصعوبة.

صاح صالح:

- أدركوني، إنها تختنق.

ركضت الممرضة ووضعت لها جهاز الأكسجين؛ فقد
ساعت حالتها زجر الطبيب صالح حين رأى حالتها خرج صالح
يتكئ على حائط المشفى، ودموعه تسقط بغزارة اتصل به الطبيب
سامر يسأل عن تغيب ثريا عن العيادة أخبره أنها ترقد في
مستشفى المدينة، وحالتها حرجة، وبكى صالح دون أن يكمل
المكالمة ساعات ووصل الطبيب سامر سلم على صالح وسأله عن
حالتها، وما السبب في مرضها:

- كنت قد خبأت عنها سرًا مرت عليه سنون وظننت أنه مات، وفجأة دبّت الحياة فيه وعاد حيا يرزق.
- كان سامر يستمع إليه لكنه لم يفهم ذلك اللغز المبهم:
- يا عم لم أفهم شيئًا! ما السر وما شأن ثريا به؟
- هز صالح رأسه وبصوت متعب:
- ثريا ليست ابنتي.
- وكان غصنا معقوفًا علق في حلق سامر كلما أراد أن يتكلم ما استطاع وبعد برهة رد:
- ابنة من إذن؟
- أردف بعد زفرة كادت تحرق شفثيه:
- ابنة قريب لي لقي حتفة هو وزوجته ولم يكن له أقارب هنا إلا أنا.
- شعر سامر بوخز في صدره وشيء ما يكتم أنفاسه، همس بينه وبين نفسه:
- نجمة تلالأت في سمائي، وحينما مددت يدي لها أفلتت... حاول سامر أن يطمئن صالح بأنه سوف يشرف عليها ذهب سامر، وجلس مع الطبيب المشرف عليها وسأله عن حالتها فأخبره الطبيب أن الصدمة قوية، وقد لا تخرج منها بسهولة دخل عليها، وجهاز الأكسجين على أنفها فلم يستطع أن ينظر إليها شعر بضيق كاد يخنقه مرًا أسبوع وثرىا مازالت في المشفى تحسنت حالتها واستقرت لكنها لا تتكلم مرض صالح، ورقد في الغرفة التي ترقد فيها.. فقد ارتفع ضغطه، وعانى من نوبة صداع مزمنة.. زاره سامر.. وأشفق على حاله فقد كان متعبًا. اقترب سامر من ثريا فقد كانت شاردة الذهن، صامتة، همس لها:
- لم أعرفك ضعيفة.. أنت من نستمد منك القوة.. كوني قوية من أجل أبيك انظري إليه.. لاتعذبيه لا تحمليه فوق

طاقته.. ارفقي بنفسك وبه.. ثريا نحن بحاجة.. بحاجة
كلماتك التي تثبت فينا الأمل، ما عهدناك يائسة.
هزت ثريا رأسها.. فتبسم سامر ثم ودعها وانصرف في
الصباح استيقظت من فراشها وجلست بجوار أبيها كزهرة
ياسمين سقطت في غير أوانها تأملته طويلاً.. وضعت يدها
على جبينه ففتح عينيه ثم أغمضهما ظن ذلك حلما وحين شعر
بدفء يدها انتفض مستبشرا:
- أشرق شمسي.. ألهم لك الحمد.
تبسمت ابتسامة باهتة، سرق بهاؤها.

(٣)

بقايا قلب

غادرت ثريا المشفى بصحبة أبيها، والطبيب سامر
والجميع. كانت تكاليف المشفى باهظة، لكنها كانت في نظر صالح
لا شيء، مقابل سلامة ابنته. عادت ثريا إلى المنزل، الكل كان
فرحاً بعودتها. احتضنتها أم أحمد، وهي تبكي:

- الحمد لله على سلامتك يا أبنتي.

حمل أحمد، عمر الصغير، الذي صار عمره ثمانية أشهر
ووضعه في حضنها.

أم عمر بصوت حنون:

- عاد النور إلى البيت بعودتك "يا نور الدار".

ردت ثريا بنبرة يخفقها الأسى:

- أنتم نوره وضيأوه.

التفت الجميع حولها، ولكن ثريا لم تعد تلك الفتاة المرحّة،

التي تزين ابتسامتها الساحرة وجهها.

ليست ثريا البشوش، التي تبث الفرح في قلوب الجميع.

تسرح عيناها في أرجاء المنزل، وكأنها تراه لأول مرة.. كل شيء

بدا لها غريباً. تملكها الشعور بالوحدة والغربة، على الرغم من أن

الجميع حولها. تنهدت بعمق، وشقت تلك التنهيدة طريقها، حاملة

معها أكواما من الآهات:

- أواه.. أيّ أمّ، هذه التي ترمي طفلتها! وتحملها خطيئتها

مدى الحياة؟! ترى أهي حقا خطيئة، وثمره فاسدة من

ثمار الحب الذي انتحر على أبوابه العفاف؟ ويح قلبي..
سأظل خطيئة ذلك الحب الذي بيع بثمن بخس. حملتُ
شيئاً، لم تقترفه يداي يا الله كن معي، فحبال قوتي تمزقت،
مدّني بحبال قوتك أمواج الخضم، هائجة، ومركبي
مسجور كن لي يا الله، وكن معي فليس لي سواك.

لزمت غرفتها، شهراً كاملاً، كان صالح، يسترق النظر
إليها فيراها كعصفورة قابعة خلف قضبان قفص. قمر.. تزاحمت
الغيوم حوله، وحجبت ضوءه. جاء الطبيب سامر، ليطمئن على
صحتها، فقال له صالح بنبرة حزينة:

- أليتها تعود إلى العيادة، لعلها تخرج من جو الكآبة،
والحزن الذي هي حبيسته.

الطبيب سامر مبتسماً:

- وهذا الذي جئت من أجله. أريدها أن تعود إلى العيادة،
وبأسرع وقت.

صالح وهو يهز رأسه بأسى:

- حدثتها عن العيادة أشاحت بوجهها عني، ورجتني أن لا
أفتح معها هذا الموضوع مرة أخرى، فصمتُ.

- نادها يا عم أريدها.

دخل صالح على ثريا، وأخبرها أن الطبيب يريد أن يطمئن
عليها.

وبعد برهة، دخلت ثريا، ومعها والدها على الطبيب.

سامر مستبشراً:

- ما شاء الله، صرت أحسن. الحمد لله أنك بخير. العيادة
تنتظرك، والمرضى بحاجة لك "يا فراشة العيادة". وكأن
الكلام، مات على شفيتها.

- كان يتأملها، قال في نفسه:
- تحت عينيها، أقيمت مراسم عزاء، وعلى وجنتيها، شيع الفرح.. وعلى عتبة ثغرها، ماتت أعذب العبارات، وبعد إلحاح الطبيب، وعزمه أنه سيغلق العيادة ما لم تعد إليها، هزت رأسها بصمت.
 - سامر راجيا:
 - ثريا العيادة تنتظرك، والمرضى بحاجة، فلا تدعي الحزن يسرق منك، أجمل ما تملكين، حب عملك، وحب الناس لك، غدا سأنتظرك في العيادة.
 - ردت ثريا، بصوت بالكاد يسمع:
 - سأحاول.
 - سامر، مصرًا:
 - العيادة أنت من يفتحها غدا.
 - إن شاء الله.
 - استبشر صالح، بموافقتها، وشكر الطبيب على إصراره على عودتها للعيادة. عودة ثريا للعيادة، عودتها للحياة من جديد.
 - في الصباح، كان سامر في انتظارها... عادت ثريا إلى العيادة، بابتسامة متصنعة، وبروح مكسورة. استقبلتها هدى، بكل حرارة، واعتذرت، عن تقصيرها معها، لأنها كانت، مشغولة بمرض أمها. استقبلها سامر، بباقة ورد. سامر مبتسما فرحا:
 - الحمد لله، عادت الروح إلى العيادة، وعادت فراشتها.
 - نظرت إليه هدى، وهي تحرك شفتيها يمنا ويسرى غير راضية عن كلامه. زاولت ثريا عملها، وهي كما هي، تحاول أن تقاوم، أن تخبئ بعثرتها، وأن تبدو بكامل هيئتها. ابتسامة باهتة، ترتسم على محياها، تصارع الأسى الذي أحكم قبضته على أنفاسها.

مر عام، على سفر فهد، ومرضت أمه مرضاً شديداً، وصارت تهذي باسمه ليل نهار. كان فهد، قد سافر إلى بريطانيا، حيث يقطن خاله، فبعد شهر من سفره، أخبر والده بذلك. سافرت هند، ووالداها إلى بريطانيا، فما استطاعوا تحمل فراقه أكثر. بعد عام، تزوجت هند من ابن خالها، هناك، وعاد أبو فهد وزوجته. عاد فهد بعد سنتين، لتكون المفاجأة، خطوبته من سهى، وُحِدَ موعد الزفاف، بعد أسابيع من عودته.

تلك الأخبار، وصلت إلى مسامع ثريا بصمت، كالسهم اخترقت نياط قلبها، فتركت خلفها جرحاً ينزف. في غمضة عين، ضاع منها كل شيء، كانت تحدث نفسها، لعله يعود، لعله يستعيد قوته.. لعله يغيب، ويعود إلى حضن ذلك الحب الذي يرتجف بعد تلك العاصفة الثلجية، التي رمت به في كوخ مهجور. ينتظره لينتشل من هناك، ويعود به إلى روابيه حيث نشأ وترعرع. تخلى عنها، من كان بالنسبة لها الكتف، الذي تتكى عليه وتثق أنه لا يميل، ولا يسقط، سقط بنسمة هواء عابرة. ذلك الفارس، الذي عاهدها أنه سيحارب الدنيا من أجلها، رفع رايته البيضاء في أول المعركة، كان لها كل شيء.. تنام، على همس صوته، وتحتضن طيفه كل ليلة.. خذلها.. تركها في منتصف الطريق، وحدها.. كيف ستغفر له ذلك؟ كيف؟ وتلك الرفيقة، التي عاهدتها أنها ستبقى بجوارها، ومعها إلى الأبد، قد أفلتت يدها منها، وهي في أمس الحاجة إليها. عند المواقف.. نعرف معادن الناس. يصدأ، من كنا نظنه ذهباً.

أقيمت مراسم زفاف، تليق بفهد ابن حسام. تحدث الجميع عنها.. وتحققت أمنية حبيبة وسهى وسافر فهد وسهى، إلى جزر المالديف لقضاء شهر العسل. تخلصت ثريا، من الأشياء التي تذكرها بفهد، كل الهدايا.. سوار الذهب باعتها، وتبرعت بقيمته

للمرضى في العيادة. أشعلت النار، ورمت فيها بعض الرسائل،
والقصاصات وغيرها.. حملت "طوق الياسمين" بين يديها،
واحتضنته، ذرفت عيونها، دموعها، امتزجت بدموع الياسمين،
وسمعت همسها:

- أيا نار، كوني بردا على زهرات الياسمين.
أطفأت دموع الياسمين اللهب، وعانق عبقها، سديم السماء،
وقص لها، قصة حب، لم تكتمل..

لم يبق لثريا، ما يذكرها بفهد، إلا تلك الذكريات، التي
تستيقظ في دجى الليل، تأخذها إلى مرافئ الشوق والحنين، فتغفو
على كتف الأنين، وبين الفينة والأخرى توقظها أمواج الخيبة..
تلك الدمعة، التي تسترق من عينيها، تحكي لو سادتها قصتها كل
ليلة.. تروي لها، قصة نجمة، شاردة، ضاعت خلف الغيم.. تحكي
لها، عن زهرة البنفسج الحزينة، التي سرق منها بهاؤها، ورقتها..

(٤)

سمر

ظهر اهتمام الطبيب سامر بثرثيا جليًا، صار يخاف عليها من كل شيء.. يسترق النظر إليها بين الحين والآخر.. لاحظت هدى ذلك الاهتمام، فزادت غيرتها، وبغضها لثرثيا صارت تضايقها وتجرحها بالكلام.. كان سامر فطناً لتصرفات هدى.

- هدى.... تعالي.. (قال سامر).

دخلت هدى غرفة الطبيب سامر.

سامر غاضباً:

- أغلقي الباب.

أغلقت هدى الباب، ووقفت قلقة الطبيب سامر وقد وقف

قبالتها:

- متى ستتوقفين عن معاملتك السيئة لثرثيا؟

هدى بتوتر:

- هل اشتكت مني؟

- لا، أنا أراك وأرى تضايقها دون أن تتكلم.

هدى مغتظة وقد ضربت بيدها على المنضدة:

- أعرف أنك تحبها.

زعم سامر:

- الزمي حدك ولا تتحدثي في خصوصياتي.

هدى وقد احمر وجهها:

- حسناً سأترك العيادة لك ولها.

- سامر بصوت هادئ:
- خيراً تفعلين.
 - خرجت هدى غاضبة. أقبلت ثريا مبتسمة:
 - هدى انظري.. ماذا جلبت من البقالة.
 - زجرتها هدى قائلة:
 - لقد خلا لك الجو.
 - لم تفهم ثريا ماذا قصدت هدى لكن تعابير وجهها ونبرتها
أحزنتها.. في اليوم الثاني لاحظت ثريا غياب هدى فسألت عنها
الطبيب فأخبرها أنها استقالت. شدهت ثريا:
 - ولم؟
 - على الرغم أنني أعرفها حق المعرفة، لم تتغير أبداً أناانية
ولا تحب إلا نفسها تقرض نفسها على الجميع..
 - ردت ثريا بصوت خجول:
 - هي مهتمة بك.
 - أنا لا أريدها.
 - لا تريدها بعد قصة حبك معها!؟
 - قطب حاجبيه:
 - أي قصة!؟
 - قالت لي ذات مرة أن بينكما قصة حب.
 - ضحك سامر؛ ثم قال:
 - تخلق قصصاً من خيالها.. أكثر من مرة أبين لها بصريح
العبارة أن قلبي مغلقة أبوابه.. فقد اكتفيت بقصة حبٍ
أخذت مني كل شيء.
 - هل انتهت بخذلان!؟
 - تنهد سامر؛ ثم قال:

ما أقسى حبًا ينتهي بخذلان!! تعرفين الخذلان لا يأتي إلا
ممن أحببناهم أكثر مما ينبغي.
هزت ثريا رأسها؛ قائلة:

- صحيح..

جلس قبالتها وردد بصوت حزين:

- مات أبي وعمرى عشر سنوات وترعرعت في بيت جدي
والد أبي، كان عمى من يشرف على تربيتى.. لجدي
ولدان هما أبى عبدالله وعمى عبد الرحمن.. ترك لهما
محلات تجارية، وأموالاً.. أبى الأصغر عاش مع عمى
في بيت واحد يتكون من طابقين نحن في الطابق الثانى
وعمى في الطابق الأول.. لعمى ثلاثة أولاد وبنت..
أكبرهم أمجد فى عمرى وسمر تصغرنى بعامين، وأسعد،
وأحمد.. مات أبى بحادث مرورى وتكفلت أمى بتربيتى
كنا أنا وأمجد فى صف واحد من الابتدائية إلى الثانوية
نتنافس أنا وهو على المركز الأول مرة مرة وأنا..
تخرجنا من الثانوية، وطلب أمجد من والده أن يدرس
خارج البلد، ففرح ووافق. ضمنت صوتى لصوته..
رفض عمى سفرى، وتحجج أنه يريدنى أزاوّل العمل
معه وأحفظ مال والدى. رفضت ذلك وطلبت منه مالاً لكى
أسافر، وحين أصرّ على الرفض قلت له إذا أريد مال
أبى.. جنّ جنون عمى صرخ: "لا مال لك عندي".
وطردنى من مكتبه حدثت أمى فحاولت تهدئتنى وعاتبتنى
على التناول على عمى.. لكننى حزنت من كلامه، وحبّه
لولده، وظلمه لى.. حدثت خالى بالأمر فغضب، وذهب
إلى عمى.. كبرت المشكلة، فاضطر خالى أن يوصلها إلى
المحكمة كونه أنكر مال أبى. بعد شهور من المحاكمة

فصلت القضية، وحكم لي بمال أبي كان نصيبه النصف
في كل شيء.. أما المنزل فقد كان باسمه.. فقد قام
بإجراءات التملك دون علم أحد.. طردني أنا، وأمي من
منزل جدي الذي تربي فيه أبي وترعرعت فيه. غادرته
دون وداع لم يودعني أحد إلا سمر التي أحرقت دموعها
قلبي.. سمر تلك الفتاة قصيرة القوام، دعاء العينين،
بيضاء البشرة ابتسامتها تنبع من طيبة قلبها.. تعلقت بي،
وتعلقت بها لا تغيب عني لحظة، نجلس أنا وهي في
حديقة منزلنا الجميل، وأقطف لها كل يوم وردة وأهمس
لها قائلاً: "كيف يُقطف الورد للورد" فتحمّر وجنتاها
خجلاً.. قالت لي ذات مرة: "شمسي تشرق من عينيك..
إن غبت غاب صباحي الجميل. نجمة أنا، وأنت
سمائي".. كان الجميع يعرف حبي لها حتى أمي، وعمي
يعرف ذلك. وبعد خروجي من المنزل مرضت سمر..
وكنت أسأل صديقتها وفاء وأعرف أخبارها منها فتوصل
إليها رسائل.

مرت سنة على ذلك الحال لا أستطيع رؤيتها.. أشغلت
نفسي بدراستي.. وفي يوم من الأيام جرتني الشوق إليها جراً،
ذهبت إلى وفاء، وحين أخبرتها أنني أريد أن أراها.. لا أستطيع أن
أتحمل أكثر من ذلك. وجدت عند وفاء أخباراً عن سمر مزقت
نياط قلبي.. تزوجت سمر من ابن تاجر صديق عمي لم ترض به
لكن تحت إصرار عمي وافقت. ويوم زفافها بكت أمام الجميع..
شعرت بشيء يختنق في جوانحي كطير ينتفض يصارع حلقه.
بكيّت يومها حتى تقرحت مقلتي فقد ضاعت مني سمر، ولا حيلة
في يدي.. فقد حرمني منها عمي كما حرمني من بيت جدي..
سافرت وأكملت دراستي، وبعد سنوات عدت إلى أمي، وفتحت

عيادة الأمل واشترت أمي منزلاً، بالقرب من العيادة في هذا الحي حاولت نسيان سمر لكن قلبي أبى.. بعدها أغلقت أبواب قلبي ودفنت مشاعري وأحاسيسي.. ماتت كل النساء في عيني بعد سمر.. كرست جل اهتمامي على العيادة والمرضى.. فجأة ودون مقدمات "نبض قلبي" لإحداهن وفتحت أبوابه على مصراعها.. وانهمر غيث الحب وعادت الروح إلى مشاعري يوماً بعد يوم يزداد تعلقي بها؛ إنها نور أضاء زوايا قلبي المعتمة ولاحظت هدى ذلك فزاد جنونها..

فهمت ثريا تلميحات الطبيب سامر، فردت ببرود:
- ربما من نبض لها قلبك قد مات نبض قلبها.. فقد اكتفت من الحب وجعاً وألماً وخيبة.. هدى تحبك فاخترها هي فربما سعادتك معها.. ثم انصرفت.
حار سامر من ردها وانتابه القلق.. عزم أن يحدث العم صالح ويقطع الشك باليقين.. فاتصل به وأخبره أنه يريد مقابلته.
التقى صالح بسامر في المتجر بعد أن تجاذبا أطراف الحديث، أخبر سامر صالح عن شعوره تجاه ثريا.. تعرق جبين صالح، توتر ورد مترجيا:
- أرجوك دع ثريا في حالها.
رد سامر بقلق:
- خيراً يا عم؟
أردف صالح بنبرة بالكاد تسمع:
- لا أريدها أن تتعرض لصدمة أخرى.. يكفي ما حدث لها.
وبعد إصرار سامر، وتوسله إليه.
رد صالح بحزن:
- اغتال قلبها بدم بارد.
فرد عليه سامر:

- تقصد فهد..
- تلك قصة انتهت ومر عليها سنون.
- لم يدر صالح بما يتحجج، ورأى سامر الحيرة في ملامحه رد سامر:
- يا عم قل أنك لا تريدني، لا مشكلة في الرفض.
- أردف صالح:
- معاذ الله ومن يرفضك وأنت الطبيب سامر لكن يا بني... قاطعه سامر:
- لكن ماذا؟ قل يا عم، اسمعك.
- هنا صالح رأسه ثم قال:
- قلت لك أن ثريا ليست ابنتي أنا من رببتها.
- أعرف ذلك، وأنا أريدها.
- رد صالح بأسى:
- لكنها ليس لها أب ولا أم.
- سامر وقد اتسعت حدقتا عينيه:
- لم أفهم!
- يعني أن ثريا...؟
- ثم لمعت الدموع في عينيه.. كان سامر جالسا فوقف:
- ماذا يا عم؟ أكمل؟
- صالح بصوت متهدج:
- ثريا، يا بني لقيطة!
- كأن برقاً لمع وخطف بصره وسمعه
- استدار حول نفسه يمسح رأسه ووجهه بيده اليمنى واتكأ على كف يده اليسرى فوق المنضدة.
- أردف صالح وهو يتأمل به بالأم:

- نعم، كما قلت لك وقد عرفت كل شيء عنها. لم يتخل عنها فهد الذي أحبته بكل جوارحها، إلا لهذا السبب..
انصرف سامر دون أن ينبس بحرف.. عاد سامر إلى

المنزل

أم سامر مبتسمة:

- أعد لك العشاء.

- لا أريد يا أمي.

جلس على السرير بجوارها ثم وضع رأسه في حضنها
انهمر الدمع من مقلتيه شعرت بحرارة دموعه نظرت إليه!
أم سامر وهي تتحسس وجهه:

- تبكي...!!

تنهد سامر بعمق ثم رد:

- نعم يا أمي

- وهل يبكي الرجال؟

- نعم يا أماه.. حينما تتألم قلوبهم.. تبكي عيونهم

ردت أم سامر بقلق:

- مابك يا بني؟ تحدث أسمعك بقلبي.

جلس وهو يكفكف دموعه ثم قال:

- حينما نحب بعمق يكون الجرح أعمق.. هكذا كان حبي

لسمر، داريته سنيئا، حتى برئت منه، كأن لم يخلق من

النساء في الأرض إلا سمر، كان في صدري بوح ينفذ

جناحيه ليطير لكنه حبيس صمتي.. تمنيت لو أنني أكتب

الشعر لأطلق ذلك البوح ترانيم، وقصائد.. كنت أقرأ لقيس

مجنون ليلي كان شعره يختلج أعماقي يحاكيني.. فأنا مثله

شربت من الكأس نفسه أختم أبياته بدموع تتساقط من

عيني كالطرر.. مرت الأيام والسنون وتناسيت ثم نسيت

- وهاهي الأيام تبلورني من جديد وتلقيني في جب الحب
مرة أخرى.. إحداهن فتحت قلبي، يا أماه.
تهلل وجه أمه وزغردت:
- كم انتظرت هذه اللحظة؟ وكم دعوت الله أن يأتي بها..
خشيت أن أموت ولم أرَ أحفادك، يا بني. من هي؟ من
أين؟ سأذهب غدا، وأخطبها لك.
وبصوت حزين رد سامر:
- ليت يا أماه، الأمر ليس بهذه السهولة، فهناك شيء
أربكني، حائر أنا، يا أماه.
أمسكت أم سامر بكتف ولدها ثم قالت:
- لم أفهم شيئا.. تحبها ومحتار! هل الفتاة تحبك؟
- لم تفصح لي عن مشاعرها، تعرضت لصدمة عصبية
كادت تهلكها لولا لطف الله.
أم سامر وقد اتسعت حدقتا عينيها:
- ما السبب في ذلك؟
- السبب نفسه الذي جعلني احتار، أحبها لكن، هل سترضين
بها؟
قاطعته أمه:
- هل هي مريضة؟
صمت سامر برهة ثم رد بعد ذلك وقد أشاح بوجهه عن
أمه:
- لا.. بل هي لقيطة.. قررت أن أتقدم إليها خاطبا، فصدمت
بما سمعت.
- صمتت أم سامر وكأن سامرا عرف جوابها.. احتضنت أم
سامر وجه ولدها بكفيها؛ ثم قالت:

- ليس لها ذنب ولا تحمل خطيئة من ارتكب الخطيئة بحقها
مادمت تعرفها وتعرف أخلاقها تقدم لخطبتها "فلا تزر
وزارة وزر أخرى".

انكب سامر يقبل قدمي أمه ويبيكي فاحتضنته وهي تدعو
له.. طلب منها أن تذهب وتتعرف عليها وبعد ذلك سيطلبها من
أبيها. ذهبت أم سامر فاستقبلتها أم أحمد ورحبت بها. دخلت ثريا
ثم سلمت على أم سامر ورحبت بها، انبلجت أسارير وجه أم سامر
ثم قالت:

- سبحانك ربي! تبارك الخالق! حماك الله يا بنيتي..
تبسمت ثريا ابتسامة باهتة ثم ردت:
- سلمت ياخالة.

على الرغم من ذلك الجمال الذي أبهرها إلا أنها رأت حزنا
يحببه.. رأت زهرة بنفسج تحتضن حزنها بصمت استأذنت ثريا
بالانصراف.. جلست أم سامر، وأم أحمد تحدثت عن رغبتها،
ورغبة ابنها سامر في خطبة ثريا استبشرت أم أحمد بما سمعت
وأخبرتها أنها ستحدث صالح ثم ترد لهم الخبر

حين سمع صالح الخبر تضايق، وتوتر خشي أن تسمع ثريا
فتمرض.. اتصل بسامر، فأخبره سامر أنه يريد لها ولن يلتفت
للماضي مهما كان، وأن والدته موافقة وقد رأتها بعينها.. فرح
صالح؛ لكنه كان على يقين أن ثريا سترفضه.. وفعلا رفضت
حينما أخبرها أن الطبيب سامر يريد خطبتها.. كانت متيقنة
لما يدور حولها.. فما كان من صالح إلا أن ترك الأمر لسامر
ليقنعها بعد أيام وقبل مغادرتها للعيادة.. سامر بصوت هادئ:

- هل تسمحين لي بالتحدث معك بعض الوقت؟
ردت ثريا:
- نعم..

- جلس قبالتها في أحد مقاعد العيادة.. سامر وهو يحدق بها:
- هل تشعرين أن هناك شخص يحبك؟ يفكر فيك، يهتم بك ردت ثريا بنبرة حزينة:
 - كأنك تقدم الورد لمن فقد حاسة الشم وتطلب منه أن يشم عبقه.
 - هز سامر رأسه وفهم قصدها أردف:
 - أليس للورد جمالا أسرا نراه بأعيننا حتى وإن لم نستطع شم عبقه.. ثريا.. أعرف أنكِ تشعرين بحبي لك وتعرفين جيدا أنني صادق في ما أقول.. لكنكِ تتجاهلين ذلك وتجعلينني في حيرة من أمري.. هل تبادليني نفس الشعور أم أن حبي لك من طرف واحد..
 - ردت ثريا والعبرة تخفقها:
 - قبل أن تتحدث عن حبك لي، تريث اسأل عني.. فأنت لم تعرفني جيدا وأثق أنك ستترك هذا الحب الذي تتحدث عنه حينما تعرف حقيقتي!!
 - رد سامر بهدوء:
 - عرفت عنك كل شيء.
 - زعقت ثريا دون أن تملك نفسها:
 - هل عرفت أنني لقيطة!!
 - رد وهو مبتسم:
 - نعم..
 - أردفت ثريا وهي تجهش بالبكاء:
 - هل ترضى أن تتزوج لقيطة وأنت الطبيب سامر.
 - لمعت الدموع في عينيهِ؛ ثم قال:

- ثريا أرجوك، دعك من هذا الكلام.. لا تحملي نفسك خطأ
لم تقترفيه هذا قدرك ارضي به مثلما أنتِ قدري الذي
ارتضيته.
- انهالت دموعها بلا هوادة، وانتحبت.. وقف سامر مكتوف
الأيدي.. كان يتمنى أن يضمها في حضنه يهدأ من روعها..
يسمعها نبضات قلبه ويهمس لها:
- هنا وطنك..
- كان يتمنى أن يمسح بأنامله دموعها التي أحرقت وجنتيها
المتوردتين اقترب منها وانساحت الكلمات بطيئة على
شفتيه.. اغرورقت عيناه بالدمع واختنق بعبرته اقترب منها دون
أن يلمسها:
- أرجوك لا تبكي لا أحتمل أن أرى دمعة من دموعك.
سأكون لك الأب والأخ، والأم والأهل.. سأكون لك العضد
الذي تعتمدين عليها.. والأمل الذي فقدته وتبحثين عنه!!
أنتِ نجمتي وأنا سماؤك.. سكنت في نياط قلبي وتدفق
حبك في أوردتي.. أنت مشكاة نور أضاءت غياهب
أيامي. ثريا قد نالنا من التعب ما يكفي وأن لنا أن نرمي
الماضي في جب النسيان.. دعينا ندرك ماتبقى من
أعمارنا.. ونملأ أيامنا سعادة وفرحاً.
- مسحت دموعها، وعيناه غارقة في تقاسيم وجهها..
- ثريا كلي لك.... لا تخافي.. لن أسمح لدمعة أن تنزل من
عينيك بعد اليوم أبداً.
- أشرقت ابتسامة على محياها.. ورفرفت على عتبة ثغرها..
هبت نسائم الفرح، وتبسم الغيم وأمطر، جرت جداول الود
وتراقصت زهرات الفل وفاح عبقها وولت سنوات القهر العجاف.

(٥)

مجاهد

تمت خطوبة ثريا وسامر، ثم عقد قرانهما بعد فترة وجيزة ولكن فرحتهما لم تكتمل، فقد تفجر الوضع في عدن؛ دقت طبول الحرب بعد سقوط العاصمة صنعاء وإعلان عدن عاصمة مؤقتة.. زحفت قوات الانقلاب التي جمعت حشودها الكبيرة وأسقطت الحكومة، ثم اتجهت نحو عدن بعد أن سقطت قاعدة العند العسكرية في لحج..

بدأت الاشتباكات من منطقة جولة الدائرة "جولة الكرة" في حي اللحوم؛ ودارت رحى الحرب في أحياء دار سعد التي يتفرع منها حي البساتين والشارع الرئيسي الواصل بين عدن وتعز.. احتدمت المعارك هناك دخلت من الجهة الشمالية لعدن من جهة لحج.. ومن الجهة الشرقية تسللت القوات عن طريق ساحل أبين عبورا بأبين، ودخلت كريتر وخور مكسر وبقية مناطق عدن حيث استخدمت قوات الانقلاب الأسلحة الثقيلة وبدأت تقصف بها الأحياء السكنية، ارتفعت أصوات المنادين من المساجد:

- "حي على الجهاد حي على الجهاد"..

هرع مجاهد إلى متجر صالح، وتحدث مع أحمد، فقد عزمنا على الانضمام إلى المقاومة الشعبية للدفاع عن مدينتهم وحيهم.. لم يمنع صالح أحمد من الخروج فقد رأى فيه الغيرة، والشجاعة لحماية مدينته وأهله بعكس أبي مجاهد الذي حاول أن يمنع ابنه مجاهد.. وبشدة أقتعه مجاهد بالخروج فذرف دموعه، وهو ينظر إليه. تجمع شباب الحي وبدأوا يصدون القوات الداخلة بكل قوة

البعض من المدافعين كان يمسك البندقية لأول مرة ولا يجيد حملها ولا استخدامها ألا أن تلك الشجاعة دفعتهم لحمل البنادق كأنهم قد ألفوها سنيًا. كان مجاهد، وأحمد من هؤلاء الشباب استلما بندقيتين حين وزع عليهم السلاح، وكان بصحبتهم عسكري في الجيش عكف على تعليمهم وتمريسه على التعامل معها، وماهي إلا أيام قلائل حتى أصبحوا متمكنين منها. ودارت معارك شرسة في جولة السفينة، واشتد الخناق على المقاومة في أحياء دار سعد. أعتلى القناصة أبنية الفنادق العالية التي تطل على الخط الرئيسي.. خط عدن تعز.. (شارع الشهيدة فيروز) إلى جولة السفينة. وبدأت معركة أطلق عليها "عاصفة الحزم" تحلق الطائرات على مدار اليوم وبارتفاعات منخفضة؛ ترسل صواريخها على الأبنية التي استخدمتها قوات الانقلاب كمخازن للأسلحة.

بدأ الشهداء يتساقطون الواحد تلو الآخر، أمطرت الأحياء بقذائف الهاون، والصواريخ تنهال على المنازل فيروح ضحيتها العشرات. نزح بعض السكان إلى مناطق لم تصل الحرب إليها، مثل المنصورة والبريقة، والبعض منهم أثر البقاء في البيوت مخاطرين بحياتهم ولكنهم لا يطيقون الفرار بعيدا. في الليل لا ينام أحد فأصوات الرصاص من كل اتجاه.. وأصوات الغارات تبدأ قبيل الفجر تحول الحي إلى أشباح تدور فيه حرب شوارع ضارية، تختلط أصوات الغارات بأصوات بكاء الأطفال والنساء واستغاثتهن. من حي اللحوم إلى حي البساتين إلى منطقة السفينة، المعارك تتأجج وتبدو المدينة كالبركان يتطاير الشرر من فوهته.. عائلة صالح وأبو مجاهد غادرتا الحي على عجل، وانتهى بهم الأمر نازحين في مدينة المنصورة. كان صالح يرافق ثريا إلى عيادة الأمل القريبة من المكان الذي نزح إليه، فتحت العيادة على مصراعيها لإسعاف الجرحى.. كان الطبيب سامر هو من

يشرف على استقبالهم، وتقديم المساعدة لهم وإنقاذ حياتهم. تجمع بعض المرضى المتطوعين فانضموا لثريا وسامر في كل يوم يستقبلون عشرات الحالات من المصابين معظمهم من الأطفال والنساء، جراء القصف العشوائي ويصل الجرحى بالعشرات، والذين هم في حالة خطيرة يتم تحويلهم إلى مستشفى آخر.

لم يستطع أحمد ولا مجاهد العودة إلى الحي فقد كانت كل الشوارع مغلقة.. بعد يوم طويل من الاشتباكات دخل أحمد ومجاهد لأخذ قسط من الراحة، وسلما موقعهما لبعض الشباب.

في منتصف الليل شنّ هجوم مكثف على موقعهم، قتل من هم في المقدمة من الشباب، وانطلقت حناجر البقية تتعالى بالهتاف على الجهاد. هرع أحمد، ومجاهد إلى بندقيتهما.. وتوجها نحو الشباب، ودارت اشتباكات عنيفة. بزغ الفجر، وخرج الشباب يتفقدون مداخل المكان كان في مقدمتهم مجاهد ومن على أسطح إحدى البنايات انطلقت رصاصات قناصة لتردي ثلاثة شبان قتلى. إلتف الشباب حولهم والقائد يصرخ:

- ابتعدوا.. انتبهوا.. قناصة..

كان من بينهم مجاهد اخترقت رصاصة صدره. عادت الاشتباكات مع القناصة.. أحمد يصرخ:

- اسعفوهم.. أنقذوهم...

زحفوا نحوهم؛ فارق الاثنان الحياة وبقي الآخر ينزف.. صرخ أحدهم مجاهد لم يمت مازال ينزف.. ركض أحمد نحوه، والقائد يصرخ:

- انتبه القناصة مازالوا فوق الفنادق..

وصل أحمد إلى مجاهد، وحمله على ظهره وبدأ يزحف به.

- لم خاطرت بحياتك يا صديقي؟ (قال مجاهد)

- اتركني ستموت. (رد بصوت واهن)

بادره أحمد وقد غطت دماء مجاهد ظهره:

- سنموت معاً أو نحيا معاً.

مجاهد وهو يشهق:

- لا تدعوه يدخلون.. كونوا بركان عدن الذي يقذف حممه

ليحرقهم، قاوموا من أجل دار سعد من أجل خور مكسر،

وكريتر من أجل مدينة السلام.. أخبروهم أنكم شباب

تعشقون الموت في سبيل الدفاع عن الكرامة والعزة.

الموت والخزي لمن باعوا عدن وقد أطعمتهم، وأحسن

إليهم.. سيدفعون الثمن غالياً.

بدأت شهادته تزداد قوة. أحمد وهو يلهث من شدة التعب:

- سنحتفل بالنصر وأنت معنا.. تمالك يا صديقي.

انهمر الرصاص كوابل من المطر وبدأت الأصوات

تتعالى، والتكبيرات تتأجج.. فتح أحمد عينيه وإذا به على السرير

في المستشفى أصيب في رجله اليمنى تذكر صديقه مجاهد..

فصرخ:

- أين مجاهد؟

وكانت الصدمة أن مجاهد فارق الحياة وهو على ظهر

أحمد، لقد سقط معاً فأصيب أحمد.. ونجا من الموت بأعجوبة.

لم يصدق صالح أن أحمد مصاب بل ظن أنه قتل، حتى رآه.. لقد

خاطر بحياته حتى وصل المشفى.. وصل خبر استشهاد مجاهد،

فيكاه حي البساتين ودار سعد كلها.. حمل على الأكتاف وأدخل إلى

والده فعلا صراخه وأغمي عليه. كان خبر مقتل مجاهد صدمة

قوية على ثريا، كان شاباً في مقتبل العمر خلوقاً بشوشاً.. تذكرت

ملاحه وهو يحدثها عن حبه لها، تذكرت ابتسامته وهدهؤه.. جده

واجتهاده.. تلك الكتب التي لا تفارقه.. كان يحلم أن يمتلك صيدلية

خاصة.. يحلم أن يكمل دراسته العليا "وَمَا نِيلُ الْمَطَالِبِ بِالثَّمَنِي

ولكن تُؤخذُ الدنيا غلاباً". على الرغم من تفوقه. ألا أن الواقع شيء آخر.. عمل مع والده في المزرعة وبيع ما يتم حصاده. بكت ثرياً حين رأتهم يحملونه على الأكتاف والهلع والخوف يتربص بهم ربما سيدفن أحدهم في تلك اللحظة: "شهيد يشيعه شهيد يدفنه شهيد".

وري جسد مجاهد الثرى.. بعد أن سطر أروع البطولات منذ شهرين، كتب قصة شجاعته بدمه. تجمع الأهالي في بيت أبي مجاهد يواسونه ويعزونه. كان صالح يقف بجوار أبي مجاهد.. يرتج جسد أبي مجاهد وهو ينتحب:
- ضاع مجاهد مني، يا صالح.

وتنصب دموعه كالمطر في سنده صالح وهو يهمس بحرقه:

- احتسبه عند الله، من يحمي الحي، ودار سعد وعدن؛ إلا شبابها.

قال أبو مجاهد وشفته ترتعش وصوته يتهدج بالبكاء :
- كل حرب تختطف واحداً من أولادي؛ صيف ١٩٩٤ قتل مهند أكبر أولادي كان قائد سرية لم أجد منه إلا هويته ومكاناً قالوا أنه قبره والبعض قال أن الكلاب نهشت لحمه هو وزملاءه.. وفي ١١ فبراير ٢٠١١م قتل ماجد كنت انتظر عودته قاضياً يعتلي المحاكم.. ويصدح بصوت الحق، إلا أن العدالة سفكت دمه لقي نحبه في جمعة الكرامة، هو وأصدقاؤه. وها أنا أقدم لهذه الحرب قرباناً آخر، وكان الحروب أنا خصمها. ماتت أم مجاهد، ولم تبيكه فقد فجعت بولديها لم تحتمل أكثر. قل لي ماذا أصنع يا أبا أحمد؟ وقد رحل مجاهد وتركني أتجرع مرارة الفقد. وأخذته نوبة بكاء شديدة..

قتل مجاهد، وقتل العشرات مثل مجاهد.. تلك الهامات التي، وضعت عصابة الموت على جبينها، ودافعت عن عدن، وعن مناطقها، وشوارعها وأزقتها.. سكب الدم.. وتناثرت الأشلاء.. وهدمت الدور.. ولم يزد هم ذلك إلا إصراراً على النصر وأصبحت المدينة مدينة الأشباح تلك الفنادق التي تزين الخط الرئيسي كأنها مشاتل ورد مصفوفة أصبحت ركاما كأنها لم تكن. بعد ثلاثة أشهر من الحرب الطاحنة بزغ النصر، ففي أواخر رمضان في ليلة السابع والعشرين من رمضان الموافق ١٤ يوليو ٢٠١٥م انتصرت عدن.. ومسحت الدماء عن جبينها فابتسمت.

كان العيد بنكهة النصر، فقد دحرت قوات العدو دون رجعة وتلألأت سماء عدن ابتهاجاً بالنصر المؤزر.

(٦)

عرش الورد

بعد تلك الشهور العصبية التي مرت بها مدينة عدن،
وضواحيها؛ هدأت أصوات البنادق والمدافع لكن آثار الحرب
تركت عدن، كحساء أحرق وجهها..

خمدت نار الحرب، وتصاعد دخانها، وفي سماء عدن
نورس يصف جناحيه، ويحلق على شواطئها الساحرة، ثمَّ يبتعد
مفزوعاً يعانق في السماء الغيم.. يحكي له هول مارأى من ركاب..
دماء.. أشلاء.. يحكي له عن أم تكلّى تنهمر دموعها على خديها
بلا هوادة على ولدها الذي ترجل باكراً.. وقد كانت تعد الأيام لتراه
عريساً يزف إلى بيته الجديد الذي لم يبقَ على تجهيزه إلا القليل..
يحكي له.. عن طفل قتل والده، وما زال يسأل أمه.. لماذا لم
يعد أبي إلى الآن؟ فتموت الكلمات على شفثتها...

وتختنق بعبرتها فتضمه إلى حضنها:

- أبوك حر، والأحرار يا ولدي لا يرضون بالمهانة؛ يبذلون
دماءهم في سبيل العزة والكرامة.

أسرة لم يبق منها إلا الأطلال.. فقد كانت ضحايا غارة
خاطئة بيوت طمرت.. شوارع مكدسة بالركام.. وهناك على
ساحل عدن الجميل الذي هجرته النوارس، روى الغيم ألف حكاية
وحكاية.. حكايات عدن "ثغر اليمن الباسم" التي أضحت حزينة،
مدينة السلام والتعايش الديني تفتح ذراعيها لكل من قدم إليها، يهيم
بها، وإن غادرها تظل عالقة في ذهنه.. تلك المدينة العريقة بعراقة

معالمها الشامخة؛ الجميلة الساحرة.. هاهي، أيها الغيم شعثناء
غبراء، يسمع نحيبها على أبنائها الذين قتلوا بدم بارد.. ثبًا للحرب،
ومن أسعرها.. فقد اكتسحت كل شيء، وأهلك الحث، والنسل
ثم طفرت الدموع من عيني "النورس" فأبكى الغيم.. من رحم
الألم يولد الأمل.. قد تنتاسي الحزن حتى لا نفزع عصفير الفرح،
فتبتعد عنانلم جراحنا، ونبتسم كفارس مكلوم لكنه منتصر.

بعد عدة شهور من الحرب عادت الحياة شيئًا فشيئًا إلى
الشوارع والأزقة والأحياء تنفست عدن الصعداء، وابتسمت على
الرغم من الأسى والفقد.

عادت عائلة صالح إلى منزلها وفرحوا حينما رأوا المنزل
سليمًا لم يصب بأذى، ألا ببعض طلاقات الرصاص التي كسرت
زجاج نوافذ المنزل.

اكتملت فرحتهم بشفاء أحمد وعودته إلى المنزل وبعد
أسابيع حدد موعد زفاف ثريا وسامر قرعت طبول الفرح وهلت
الليالي الملاح.

"حفلة الغسل" سبقت الزفاف بيومين.. لبست ثريا ثوبها
الأخضر تزينه خيوط ذهبية. أطواق الفل المصفوفة غطت نصف
شعرها وانسدلت إلى كتفها.. عقد من الفل تتخلله زهرات
خضراء يزين عنقها.. طلت بكامل حلتها كياقوتة زارها بريقها
الأخضر جمالًا.

اكتظ المكان بالأهل، والأحبة وتعالن الزغاريد والترانيم
وضربت الدفوف ورقصت عينا سامر حين رآها، إنها أول مرة
يراها بهذا البهاء والجمال.. انبلجت أسارير وجهه، وهو يراها
كزهرة متفتحة في مشاتل الفل، وابتسامة السعادة تزهو على
شفثها.. لقد وعدّها أنه سيقم زفافا يتحدث عنه الناس.

بدأ الاستعداد لموعد الزفاف جهز صالح ابنته بكل شيء وجلب لها كل ما تحتاجه.. من حلي وحلل. بدأت مراسم الزفاف فحجز سامر صالة أفراح فاخرة واشترى لها فستان زفاف من أحدث الموديلات ووضع بطاقات الدعوة أمامها والحقيبة وطلب منها فتحها فتحت ثريا الحقيبة فأبهرها الفستان. ثريا وقد تهلل وجهها:

- مذهل!!....

سامر مبتسمًا:

- انظري إلى بطاقات الدعوة

نظرت ثريا إليها فتبينت منها أنها صالة فخمة.. وحجزها يكلف مبلغًا كبيرًا.. وضعت البطاقة من يدها، وأعادت الفستان إلى الحقيبة.. لاحظ سامر تغير ملامحها، وتلاشت أسارير الفرح من وجهها

- ما بك؟ لِمَ الحزن؟ لِمَ تشعرين بالضيق؟

ردت ثريا بنبرة حزينة:

- أحب البساطة.. وأبغض التفاخر والتباهي.

سامر مستغربًا:

- ليس تفاخرًا أنا أريد إسعادك.. ظننت ذلك سيسعدك ويبهجك.

- سعيدة معك وبك.. لا بالصالة الفاخرة، ولا بالفستان الغالي الثمن. ليس هناك أجمل من البساطة والاعتدال في كل شيء.. أنا أنتمي إلى أولئك البسطاء الذين لا يبحثون عن الأضواء.. يتوارون ويختبئون في كهوف القناعة.. أنتمي إلى أولئك الذين يرتدون معطف التواضع.. مهما تقلبت الفصول من حولهم.. أشفق على فتاة لا يهتمها إلا أن تبهر صديقاتها بليلة زفافها فكل شيء لا بد أن يكون فاخرًا

حتى تصبح تلك الليلة حديثهن وشغلن الشاغل.. ماذنب
ذلك المسكين الذي حمل على عاتقه ديونا أثقلت كاهله
فسرعان ما تتلاشى المحبة والسعادة بعد أيام قليلة من
زفافهما..

رد سامر وقد تلاً لأوجهه فرحاً:

- تعرفين لو طلب مني وزنك ذهباً لما ترددت عن ذلك..
درة أنتِ لا يضاهيك أحد.. محظوظ أنا فيك، لعلها
دعوات أمي، يا ثريا! اقبلي هديتي هذه فأنتِ لم تطليها
ليت السعادة تباع لأشترئها لك..
ردت ثريا مبتسمة:
- حسناً قبلتها، سعادتي أنتِ؛ وبك اكتفيت.

ليلة الزفاف كانت من أجمل الليالي.. أطفئت الأنوار،
وبدأت أصوات الموسيقى الخافتة سلطت الأضواء على العروس،
وهي تقف أعلى السلم.. سلم الصالة الذي زين ببتلات منثورة من
الورد الجوري الأحمر وتدلّى من جانبيه ورد الزنبق وزهرات
القرنفل الملونة وتزينت طبقات السلم بالمصابيح البيضاء التي
أضافت للمكان سحراً ورومانسية وبدأت ثريا بالنزول خطوة..
خطوة فبدت كأميرة في فستانها المنفوش المطرز بالورود البيضاء
ذو أكمام طويلة مصنوعة من "الدانتل" وذيل طويل ينسحب
وراءها ببهاء وكبرياء.. خصر ضيق متناسق على تفاصيل قامتها
الممشوقة.. طرحتها من تحت رقبتها إلى خصرها، تمسك بباقة
وردٍ حمراء بيدها اليمنى باقة عرسها تسريحة شعرها البسيطة
تزيدها فتنة.. يضيفي تاج أنيق من الكريستال وضع على رأسها ألحاً
لكل تلك اللوحة البديعة من الجمال.. حذاؤها كريستالي متوسط
الكعب يتلألأ كنجوم السماء.. أحمر شفاه رسم على شفثيها بدقة،

عكس لونه بياض ثغرها الناصع مع قليل من المكياج الذهبي المخملي الناعم ولمسة ظل خفيفة. كان سامر يتمتع في تفاصيلها البهية وهو ينتظرها أسفل السلم وحين وصلت مد يده إليها.. وقف أمامها ورسم قبلة على جبينها ثم صعدا الجسر المغطى، بالزجاج المتلألئ بالمصابيح البيضاء والذهبية.. تزينه أقواس من الورد خطوة.. خطوة

أسارير الفرخ، والسرور تشرق من وجهيهما، وابتسامتهما تتلألأ كنجمتين يتسامران عند الشفق نزلا من الجسر، وصعدا عرش الورد وسلطت الأضواء عليهما عرش الورد "الكوشة" تزينت بأشكال من الورد الأنيق المميزة بينما تم وضع أشكال من الشمعدانات على جانبي عرش الورد وأعمدة الصالة اعتمد في تزيينها على أشكال من الزخارف الجميلة.

يزين اللون الأبيض والذهبي الحائط والسقف وزينت الصالة بالورود والمفارش المصنوعة من الساتان الأبيض.. تم المزج بين اللونين الأبيض، والذهبي في غطاء الطاولات والمقاعد باقات من الورد الأبيض الأنيق تزين الطاولات.

تلف الشرائط الساتان بألوان رقيقة حول المقاعد، وفي جوانب الصالة وعلى المزهريات. بطريقة مميزة تم تعليق أشكال راقية وفخمة من ثريات الكريستال في السقف. أعتلت ثريا عرش الورد وبجانبيها سامر صعدت أم سامر تزغرد وترقص فنهض سامر، واحتضنها وقبلها احتضنتها ثريا أجلساها وسطهما فاحتضنتهما معاً دخل صالح، وعائلته وحين صعدوا الجسر نظرت إليهم ثريا وتلألأ وجهها فرحاً صعدوا عرش الورد، فنهضت إليهم قبل أن يصلوا إليها عانقها والدها بحرارة والدموع تلمع في عينيه. حمل أحمد عمر الصغير إليها ليقبلها فاحتضنتهما معاً.

- سلم عليها محمد وهمس إليها:
- لا تغيبني عنا كثيراً وإلا سأترك العسل.
ردت ثريا مبتسمة:
- لن أغيب عنكم فأنتم أغلى ما أملك.
عمر وهو يتأمل عرش الورد، والصالة، والحضور:
- ما أجمل هذا المكان! وقد زاد جمالاً بك أختي
ردت ثريا وهي تتبسم:
- متى يا شاعرنا تكون هنا؟
ضحك عمر ثم قال:
- عن قريب
همس لها أحمد مازحاً:
- لا تقلقي، يا ثريا فالشاعر قد وجد قصيدته..
ضحك الجميع، وقفوا بجانبها ووقف صالح بجوار سامر
ولف يده حول كتف سامر توسطت أم أحمد أولادها وهي تزغرد
وتنثر الورد على العريسين، وأم سامر ترقص وتصفق بيديها
بدأت مراسم الزفة، وقف سامر وأمسكها بيدها وبدأ
بالنزول من عرش الورد ثم الصعود على الجسر الزجاجي وبدأ
الأهل، والأحباب ينثرون الفل على العريسين وعند بوابة الصالة
التف حولها الجميع لتوديعها كان صالح ينظر إليها والدموع تملأ
أهدابه مر أمامه شريط الذكريات، وتذكر تلك اللحظة التي كشف
الغطاء عنها فرأى وجهها وهي داخل ذلك الصندوق الخشبي
تمزقت نياط قلبه كمداً، وألماً تحمل في تلك اللحظة أمانة تهد
الجال أرهقت عاتقه لطالما أرقه السهد.. ودفع من صحته الكثير،
والكثير.

تأملها بحب، وهو يسمع صدى ضحكاتها؛ وارتسمت
ابتسامة على محياه مزجت بالرضا، وتنفس بعمق ثم أخرج زفرة
أزاحت ذلك الهم الجاثم على صدره.. تمت:

- الحمد لله انقشعت سحب الحزن.. وولت تلك الليالي
الحالكة الظلام.. انبثق النور.. وتبسم فجر الأمل، وجبر
الله كسرًا قد يُست أن يجبر؛ لقد أتى الله بمن يحمل عني
الأمانة التي قطعت عهدًا على نفسي أن أحفظها مادام
قلبي ينبض، فهو والله لها أهل لقد رأيتها في أحداق عينيه.
انتبه صالح على صوت سامر
- ألا تودعها، يا عم!..

تقدم إليها صالح بخطواته الثقيلة لفها بذراعيه فأمسكته بكلا
ذراعيها تهللت الدموع من عينيه وهي تهمس له:
- أدامك الله لي سندًا ونورًا وحياة.
اقترب سامر؛ فهمس له:

- أغار يا عم.
فضحك.. وضحكت ثريا وهي تكف دموعها ودع صالح
سامر وعانقه عناقًا شديدًا أمسك بكتفه؛ ثم همس له وهو يشير
إلى ثريا:

- ها هو "وجه القمر" تلاً.. عاد بدرًا مكتملاً حافظ عليه
من الخسوف
رد سامر مبتسماً:

- سأكون لوجه القمر سماءً دون منازل دون سحب، ولا
غيوم تحجبه.. أعدك يا عم أن تراه بدرًا في تمامه دائماً.
تمت...